فلسفة الفن
في التصوير الإيطالي في عهد النهضة

تأليف

هيبوليت تين (١٨٢٨ — ١٨٩٣)

ترجمة

الياس يعقوب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الفصل الاول

طابع التصوير الايطالي

« النهضة » هي تلك الحقبة المجيدة التي يتفق الناس على اعتبارها أروع ما بلغه الابداع الايطالي. وهي تشمل ، علاوة على الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، الثلاثين أو الاربعين سنة الأولى من القرن السادس عشر. في هذا النطاق الضيق ازدهر الفنانون الكاملون أمثال ليونارد دفنشي (Léonard de Vinci) ، ورافائيل (Raphaël) ، وميكلانج (Michel-Ange) واندريا دل سارتو (Andrea del Sarto) وفرا بارتولومو (Fra Bartolomeo) وجيورجيون (Giorgione) وتيسيان (Titien) وسباستيان دل بيومبو (Sébastien del Piombo) وكورِّيج (le Corrège) . وهذه الفسحة واضحة الحدود ، ان تقدمتها وجدت فناً ناقصاً ، خالياً من الاتقان يتصف بالجفاف والتعقد ، يتجلى في آثار محاولين أمثال أنطونيو بولايولو (Antonio Pollaiolo) وفرا فيليبو ليبي (Fra Filippo Lippi) ودومينيكو غيرلانداجو (Domenico Ghirlandajo) ، وجان بلين (Jean Bellin) وان تجاوزتها وجدت فناً مبتذلاً وتلاميذ يعمدون الى المبالغة أو عمدين بدون كفاءة أمثال برليوس رومان (Jules Romain) ، وروسو (le Rosso) ، وبريماتيس (Primatice) ومدرسة كاراش (Carrache) . فقبلاً نبت الفن وأخيراً ذبل. أما الازدهار فهو بين البداية والنهاية ، ودام نحو خمسين سنة. فاذا صادفنا في الزمن المتقدم مصوراً قارب فنه التام كازاكيو ، يجوز لنا أن نعتبره مفكراً على فنه سيما العبقرية ؛ أو مبتكراً منفرداً ينفذ بصره بغتة الى ما وراء عصره ، أو سابقاً مغموراً ليس له لاحق ، حتى أن قبره خلا من كل كتابة ، وعاش فقيراً مؤثراً العزلة ، ولم تدرك عظمته المبكرة الا بعد مرور نصف قرن . وفي الزمن التالي لا نعثر على مدرسة مزدهرة وقوية الا في البندقية ، المدينة الوحيدة التي لم تعن بالانحطاط الا بعد المدن الأخرى . والتي ظلت طويلاً مستقلة ، منسجمة ، مجيدة

بعد أن انحطت النفوس وزاغت العقول بتأثير التفتح والضغط والفساد التام .

يمكننا أن نشبه هذا العصر الذي اتصف بالابداع الرائع ، وبلغ غاية الاتقان ، بالمنطقة الكائنة في سفح جبل حيث تغرس الكرمة : ففي القسم العلوي منها لا يجود العنب لأن الهواء شديد البرودة ، وفي القسم السفلي لا يجود أيضاً لأن التربة كثيرة الرطوبة . هذه هي العلة وهذه هي السنة . فاذا وجد شذوذ ، وهذا نادر ، يمكننا تعليله . قد يجوز أن نصادف في الحقل السفلي غرسة منفردة ، تسري فيها ماوية ممتازة ، تنتج رغم البيئة ، بعض العناقيد اللذيذة . لكن هذه الغرسة تنفرد في شذوذها ولن تتكاثر وتحسب في عداد الخوارق التي تلقيها فوضى القوى الفاعلة المتراكمة في مجرى القوانين الثابتة . وليس ببعيد أن نجد في الحقل العلوي زاوية نما فيها الكرم نمواً باهراً بسبب توفر ظرف خاص وطبيعة التربة وملجأ في السفح ، والنشوء على مقربة من ينبوع . في كل هذه الأسباب مجتمعة تمنح الغرسة أغذية أو حماية قد لا نجدها في مكان آخر . إن القانون العام يظل سليماً ويمكننا أن نستنتج أنه يوجد نوع من التربة ودرجة من الحرارة يتوقف عليهما نجاح الكرمة . وكذلك ، فان القانون الذي يهيمن على نتاج التصوير الكامل يبقى صحيحاً وفي إمكاننا أن نبحث عن الحالة الذهنية والعادات التي انبثق عنها هذا التصوير .

في البدء ، يجب أن نعرف هذا التصوير ذاته . لأننا إذا نعتناه بالكامل أو التقليدي (الكلاسيكي) . درجاً على اللفظ المألوف ، لا نشير إلى طابعه ، بل إننا نشكك في نعته . وإذا كان له نعته ، فله أيضاً طابعه ، وأعني بذلك بيئته الخاصة التي لا يتعدى نطاقها ، ان هذا التصوير يزدري ويهمل المناظر ، ألا تجد أن للاشياء الجامدة مصورين يعتنون بها إلا في الفلاندر . أما المصور الايطالي فلا يتخذ إلا الانسان موضوعاً لفنه ، وليست الأشجار والبرية والمعامل في نظره إلا لواحق . ويزعم فازاري (Vasari) أن ميكلانج ، سيد المدرسة قاطبة بدون منازع ، يصرح قائلاً أنه يجب أن تترك هذه المواضيع لذوي المواهب الدنيا ليتسلوا بها ولتكون لهم عوضاً . لأن الجسم الانساني هو غرض الفن الحقيق . ولما انحط التصوير العظيم في زمن المتأخرين من البنادقة وخاصة في عهد مدرسة « كاراش » ، طفق المصورون يلتفتون الى الطبيعة . ومع ذلك فإنهم لا يتخذونها إلا زخرفاً ، فيصورون (فيلا) وفق طراز هندسي ، وحديقة أرميد ، ومسرحاً تتمثل فيه خصائص الريف والأبهة والجمع بأسلوب رفيع ومنمق ، بين التخت الاسطوري ومجون الاسياد . ففي هذه المناظر تظهر الأشجار غير واضحة ولا تنتسب الى جنس معين ؛ وتنتظم الجبال لتسر الانظار ، وتتجمع الهياكل والخرائب والقصور في صنوف أبدعها الخيال : وتفقد الطبيعة استقلالها

الخلق وصلاتها الخاصة لتتقيد بالإنسان وتزيد أفراحه وتزيد في سعة مساكنه .

ومن جهة أخرى نرى مصوري عصر النهضة يتركون للفلمنكيين تقليد الحياة الواقعية والشخص العصري في ثوبه العادي عارس شؤون حياته اليومية بين أثاثه الحقيق ، وفي النزهة والشارع ، وجالساً الى المائدة ، وفي دار البلدية والحانة . وبالجملة فان الصورة تبرزه لنا كما اعتدنا أن نراه بأعيننا ، شريفاً كان أم رعاعاً (بورجوازيّاً) أو فلاحاً مع كافة الخصائص المدينة والبارزة التي تتصل بطبعه وحرفته وحالته . إنهم يقصون هذه التفاصيل لأنها تحسب مبتذلة . وكلما سما الفن ، نراهم يتحررون شيئاً فشيئاً المطابقة الحرفية والمماثلة الواقعية . وعند انبلاج العصر العظيم بدؤوا يتخلون عن إقحام صور حقيقية في اللوحات . ومن يقدر النقش على الجدران الذي ينسب الى المصورين المتقدمين ، من فيليبو ليبي إلى بولا جولو ، وأندريا ده كاستانيو ، وجان بلين ، حتى ما زاكسيو نفسه ، ير أنهم كانوا يحشرون فيه كثيراً من الصور المعاصرة ، وأن الخطوة الكبرى التي تفصل بين الفن المكتمل والفن المبتدىء ، تتجلى في ابتكار الأشكال التامة التي تتبينها عين الروح وتعجز عن إدراكها عينا الرأس . ويمكنني أيضاً أن نزيد في تحديد فن التصوير الكلاسيكي . اذا استطعنا أن نميز بين الروح والجسم في الشخص الخيالي الذي يشهده هذا الفن ، تيسر لنا أن نلاحظ أنه لم يول الروح المقام الأول . ذلك أنه ليس صوفيّاً ولا روحانيّاً ولا مفرعاً (دراماتيك) ، ولا يتوي أن يمثل لفظ العالم النفسي والرفيع ، والنفوس المنتوعة والمريضة ، والمعتقدات اللاهوتية أو الكنسية وغيرها ، من الموضوعات التي تلك أخذولة الفن الناشر في العهد المتقدم منذ جيوتو (Giotto) وسيمون مي (S. Memmi) حتى أنجليكو (B. Angelico) ثم ما لبث أن هجر العصر المسيحي والرهباني كي يلجأ الى العصر العلماني والوثني . ولا ينتوي أبداً أن يقتطع ويشتعل القرش مشهداً عنيفاً أو أليماً من شأنه أن يغري بالشفقة أو يبعث الرهبة كما صنع دلاكروا (Delacroix) في « مذبحة أسقف لياج » ، ودكان (Decamps) في « الميتة » أو في « معركة سينبر » ، وآري شيفر (Ary Scheffer) في « الباكي » ، ولا يرمي أبداً الى التعبير عن المشاعر العميقة المتطرفة المعقدة كما فعل دلاكروا في « هملت » أو في « تاسو » . وسوف لا يتوخى إحداث التأثرات المتنوعة أو القوية إلا في العصر التالي عندما يصبح الانحطاط ظاهراً ، كما يبدو في الجدليات الفاتنات الحالمات ، والمريات المفكرات الحالمات ، والاستشهاد الفاجع الصاخب ، إن الفن المؤثر الذي يهدف إلى التأثير وتشويش الشعور المتهيج المريض ، يناقض توازنه . على إن الحياة الخلقية لا تصرفه عن التفكير في الحياة

الطبيعة . وعلة ذلك أنه لا يحتمل الإنسان كائناً سامياً خانته أعضاؤه . ولعل ليوناردو دافنشي هو المصور الوحيد السباق في إبداع كافة الأفكار والطرف الحديثة . هو ذو عبقرية جامعة ومتفائل، وباحث متوحد وتهم، تتخطى تكهناته حدود عصره حتى تكاد تبلغ أحياناً عصرنا الحاضر . ويرى الفنانون الآخرون، وكثيراً ما يشاركهم دافنشي في هذا الرأي، أن الشكل غاية لا وسيلة، وليس منوطاً بالأشياء والملامح والحركات والحالة والعمل. لذلك إنتاجهم فنياً، وليس أدبياً أو شعرياً . ويقول سلّيني (Cellini) : « إن الغرض الهام من فن الرسم هو أن نحسن رسم رجل وامرأة عاريين » . وفي الحقيقة، إنهم يبدؤون جميعهم تقريباً بالصياغة والنحت » . وأن أيديهم لمست بروز العضلات، وسايرت انحناء الخطوط، وشعرت بتداخل العظام . إنهم يتوخون قبل كل شيء أن يبرزوا للعيان الجسم الإنساني الطبيعي، أعني بذلك الجسم السليم، النشيط القوي، الحائز على جميع خصائص المصارعين والحيوانية . وعدا ذلك، فإنهم يهدفون الى الجسم البشري البالغ الكمال، الذي يقرب من النموذج الاغريقي، المتزن والمنسجم في كافة أجزائه، فقد اختير وأثبت في وضعية موفقة جداً، وزين وأحيط بأجسام أخرى أحسن جمعها وتم انسجامها فأضحى الأثر الفني كله يوحي الى الذهن فكرة عالم جسماني شبيه بالأولمب القديم، أعني عالماً عليه مسحة الألوهية أو البطولة وبلغ التفوق والكمال . هذا هو الابداع الخاص الذي امتاز به هؤلاء الفنانون . وهناك آخرون تفوّقوا في التعبير تارةً عن حياة الطبيعة، وطوراً عن حقيقة الحياة الواقعية، ومرة عن المآسي وأعماق النفس، وأخرى عن عظة أخلاقية أو اكتشاف تاريخي أو نظرة فلسفية . ويوجد في آثار الجليكو والبرت دورر (Albert Dürer)، ورمبراند (Rembrand) وذلا كروا، وديكان، كثير من النماذج الصالحة أو أصول فن التربية والتعليم، أو علم النفس، وكثير من الوداعة الذاتية والمنزلية، والأحلام الحادة والمدعضمية المتصفة بالعظمة أو الأهواء الداخلية . ويعتبرون أنفسهم إنهم خلقوا عرقاً فريداً يمتاز بأجسامه الكبيرة النبيلة التي تحيا عزيزة شريفة، وتنبيء عن جيل بشري أعظم وأقوى وأهدأ وأنشط، حالفه التوفيق أكثر مما حالفنا . ومن هذه السلالة وسابقتها، ولدت التماثيل الاغريق، انبثقت في البلدان الأخرى، كأسبانيا وفرنسا والفلاندر، الصور المثالية التي شاء فيها الانسان أن يعلم الطبيعة : كيف كان ينبغي عليها أن تصنعه، وكيف لم تصنعه على غرارها .

الفصل الثاني

الشرط الأولي

لقد عرفنا النتاج ، وبقي علينا ، عملاً بأسلوبنا ، أن نعرف البيئة التي نشأ فيها .
لندرس أولاً العرق البشري الذي أنتج هذا الفن . ان هؤلاء الناس نهجوا هذا النهج في فنون الرسم بسبب غرائز قومية ثابتة . فالخيال الايطالي تقليدي (كلاسيكي) ، أعني بذلك أنه لاتيني ، يماثل خيال الاغريق والرومان القدماء . وشاهدنا على ذلك ، ليست الآثار التي ظهرت في عصر النهضة فقط ، من نحت وبنيان وتصوير ، بل هندسة بنائه في القرون الوسطى وموسيقاه العصرية . ففي القرون الوسطى انتشرت الهندسة القوطية في سائر أنحاء أوربا ، لكنها تأخرت في دخول ايطاليا ، ولم ينفذ منها إلا مقتبسات ناقصة . وإذا قدر لنا أن نصادف فيها كنيستين مبنيتين تماماً على الطراز القوطي ، إحداها في ميلانو والأخرى في دير اسيز (Assise) ، فلأنهما من نتاج مهندسين غرباء عنها . حتى ان الايطاليين ظلوا يبنون وفق الطراز القديم في زمن الغزاة الجرمان ، وعندما بلغ الحماس المسيحي أشده ، وعندما نقحوا الطراز القديم بعناصر التجدد ، ظلوا يتذوقون الأشكال المتينة والجدران الضخمة والاعتدال في الزخرف والنور الطبيعي الصافي ، وان أبنيتهم وما امتازت به من قوة ومزج وهدوء وأناقة ، تناقض التعقد الأشيب ، والصياغة المتنفخة ، والسمو الكئيب ، والنور الباهت أو الملون ، تلك التي تتجلى في الكاتدرائيات الكائنة عبر الجبال . هكذا كانت موسيقاهم الغنائية ، ولما تزل واضحة النسق ، بل وقعها في الأذن حتى في التعبير عن المشاعر الحزينة ، فتعارض بتناسبها ووضوحها وإيقاعها وعبقريتها المسرحية البليغة الوضاءة العاصفة ، الموسيقى الالمانية الآلية ، الجزيلة المظلمة ، المطلقة العنان ، الهديدة الغموض أحياناً ، والتي تصلح كثيراً للتعبير عن أدق الخواطر وأعمق العواطف ، وغير ذلك مما يعتري النفس الروسية التي تكتشف اللانهاية وما وراء المحسوس في أثناء استشرافها المجهول وقلقها في عزلتها . ولو كنا تفحصنا نهج الايطاليين خاصة والشعوب اللاتينية عامة في الأدب والمذاهب والدين ، ولو كنا تبصرنا في

آدابهم وعاداتهم ورأيهم في الحياة ، لرأينا خيالاً عاقلاً لهذا الخيال ينبثق من سائر هذه الحالات . والعلاقة التي تميزه هي القريحة والذوق في التنسيق ، وبالتالي حسن الترتيب والشكل المنسجم الصحيح . هو أقل دماثة ونفاذاً من الخيال الجرماني ، ويتعلق بالظاهر أكثر مما يتعلق بالباطن ، ويؤثر الزخرفة الخارجية على الحياة الداخلية ، هو أكثر وثنية وأقل تديناً ، وأكثر فناً وأقل فلسفة ، وأوضح حدوداً وأجمل . يفهم الانسان أكثر مما يفهم الطبيعة ، ويدرك كنه الانسان باعتباره كائناً اجتماعياً أكثر مما لو كان في طور الصحبة. ويشق عليه أن يحذو حذو الخيال الجرماني فيصف بتقلد ويمثل الهمجية والفظاظة والغرابة والمفاجأة والفوضى وفوران القوى الغريزية ، وخصائص الفرد العديدة المتكافئة ، والخلوقات الدنيا أو التي لا شكل لها ، والحياة الصماء والغامضة الحالة في كل مراتب الكائن الحي ، وليس مرآة عامة جامعة لأن تطاقه محدود . لكنه يتفوق في الحقل الذي اختص به ، أعني الشكل . وبالمقارنة يظهر ضمن الشعوب الأخرى فظاً وجافاً . وقد انفرد وحده بالاهتداء والابانة عن الاتساق الطبيعي الكائن بين الأفكار والصور . ولقد تجلى هذا الخيال ، على أتم وجه ، فيما أنتجه شعبان عظيمان : أحدهما الشعب الفرنسي ، وهو أوفر حظاً من صفات الشعوب الشمالية ، وأقل خيالاً ، وأكثر إيقاعاً ، وينسب إليه تنسيق الأفكار الصريحة أعني أسلوب التفكير وفن المحادثة . والآخر الشعب الايطالي ، وهو أوفر نصيباً من صفات أهل الجنوب ، وأكثر فناً وأقدر على التصور وأبرع في تنسيق الأشكال الحسية ، أعني الموسيقى وفنون الرسم . ان هذه القريحة الفطرية ، التي ظهرت بوادرها فيه منذ نشأته ، وساحته في كل أدوار تاريخه ، وانسمت بها أفكاره وعمله ، قد أنتجت آثاراً في غاية الكمال لما صادفت ظروفاً ملائمة في أواخر القرن الخامس عشر . وفي الحقيقة ، ان إيطاليا أنجبت وفتئذٍ دفعة واحدة ، أو أوشكت ، ليس خمسة أو ستة من كبار المصورين ذوي العبقرية النادرة ، المتفوقين على كل من تقدمهم ، أمثال ليونار دفنشي وميكلانج ، ورافائيل ، وجيورجيون ، وتيسيان ، وفيرونيز ، وكورِّيج ، بل أنجبت طائفة أخرى من المصورين الذين مما فهم واكتمل ، أمثال اندريا دل سارتو ، بتورمو ، والبرتينلي ، وروسو ، وجول رومان ، وبريماتيزيو ، ولوينيان . ومائة آخرين أقل شهرة تأمروا في الذوق السليم ، وتمكنوا من ناصية أسلوب أولئك ، يؤلفون جيشاً ليس هؤلاء الا قادته . وثمت عدد مساوٍ تقريباً من النحاتين والمهندسين البارزين . بعضهم جاء متقدماً ، والكثرة الساحقة معاصرة . ومن حول هذه الجماعات من الفنانين ، التي بلغت شأواً بعيداً في التنوع والخصب ، تألب الكثيرون من العارفين ، والخبراء والسراة ، وجمهور عظيم يسير في الموكب ، ليس مقتصراً على الشرفاء

والمتأدبين ، بل يتكوّن من الطبقة البورجوازية والصناع وبسطاء الرهبان وأفراد الشعب .
فأضحى الذوق الرفيع في هـذا العصر ظاهرة طبيعية ، طليقية وعامة ، حتى باتت المدينة بأسرها ، بما تحلت به من تعاطف وذكاء ، تساعد في الآثار الفنية التي كان يعيرها الفنانون بتوقيعهم . ولا يجب أن يتبادر الى الذهن ، أن الفن في عصر النهضـة هو وليد المصادفة العمياء ، لأننا لسنا في صدد قوة سحرية قذفت على مسرح الوجود . بعض العقول التي أتتنى سنعها ، وفوجاً غريباً من ذوي العبقريات الفنية . ولا يمكننا إلاّ أن نقر أن سبب هذا الازدهار الفني هو استعداد عام في النفوس وقابلية مدهشة منبثة في كافة طبقات الأمة وقد دام الفن ما دامت هـذه القابلية . ويلاحظ أنها تفتحت ثم زالت في أزمنة محدودة ، وكذلك الفن فأنه ازدهر ثم انتهى في نفس الأزمنـة . إن اتجهت في عرها صوب هذا الاتجاه . نما الفن نموها في مائه . إنها بمثابة الجسم وهو بمثابة الظل : يولد بولادتها ، وينمو بنموها ، وينحط بانحطاطها ويتصدد تصددها . هي تأتي به وتجتذبه وتنوعه تبعاً لتنوعها ، فهو يترسم خطاها في كافة أجزائه وفي جميع صيرورته هي العلة الضرورية لوجوده . إذاً يتحتم علينا أن ندرسها مفصلاً كي نقف على حقيقتها وتفسيره .

الفصل الثالث

الشروط الثانوية

إنّ هناك شروطاً ثلاثة يجب توفرها كي يستطيع الانسان أن يتذوّق وينتج التصوير الرفيع . يجب عليه أولاً أن يكون مثقفاً . إذ أن الفلاحين البؤساء الجهلة ، الذين يقضون سحابة يومهم مكبين على العمل في حقولهم ، والقادة في الحروب الذين ولعوا بالصيد واشتهروا بالنهم والشرب ، لا هم لهم إلاّ السير في المواكب والتفكير بالحروب ، لا يستطيعون أن يدركوا أناقة الأشكال وتناسق الألوان لانغماسهم العظيم في الحياة الحيوانية . فالصورة زينة ، سواء كانت في كنيسة أو قصر ، ولـكي ننظر إليها نظرة القانعين المغتبطين ، ينبغي أن نتعفف قليلاً من المشاغل الثقلة ، وأن لا يكون كل تفكيرنا منحصراً في الأكل والشرب ، وأن نكون قد جزنا عهد البربرية البدائيـة وما يصاحبها من طغيان وجنوح ، وأن نتوق الى الاستمتاع بالملذات الشريفة الدقيـقة ، بعد رياضة عضلاتنا ، واطلاق العنان لغرائزنا الحربية ، وإشباع حاجاتنا الجسدية . كان الفرد فيما مضى فظّاً ، فأصبح يروي

التأمل . كان يستهلك ويخرب فأضحى يجمّل ويتذوق . كان يعيش ، فصار يزخرف حياته .
هذا هو الانقلاب الخطير الذي حصل في إيطاليا في القرن الخامس عشر . ففيه جاز الانسان العادات الاقطاعية وبلغ الفكر الحديث . وقد حصل هذا الجواز في إيطاليا قبل غيرها من البلدان قاطبة . ويعزى هذا الأمر الى أسباب كثيرة . منها أن الناس في هذه البلاد ذوو ذكاء مفرط وسرعة خاطر عظيمة . فكأن المدنية ، بالنسبة إليهم ، ظاهرة فطرية ، إذ أنهم يكادون يبلغونها بدون عون . حتى أننا نقع في صفوف الفلاحين الذين عدموا كل أسباب التثقف ، على ذكاء حاد طليق . لنقارن بينهم وبين الأشخاص الذين يمتون إلى ذات الطبقة في شمالي فرنسا وفي المانيا وانجلترا . اذا جرت المقارنة يصبح التمايز تباينا صريحا . فنُدُل الفندق في إيطاليا والقروي يجيدون الحديث والفهم والتفكير ، فيدلون بآرائهم ويعرفون الناس ويبحثون في السياسة ويقلبون الافكار على وجوهها بيسر ، كما يتهمرون في الكلام . فأحيانا يعبرون بوضوح ، ودائما بسهولة ، وغالبا ما يجيدون التعبير . لا سيما وقد حسوا شعورا طبيعيا مرهفا لتذوق الجمال . وما من بلاد يشاهد فيها أفراد الشعب يقفون أمام كنيسة أو صورة ويصرخون متعجبين : « يا آلله ! ما أجمله ! » O ! io, com' è bello ! واللغة الايطالية ، في محاولتها التعبير عن هذا الحماس الذي يهجم على القلب ويسطو على الحواس ، نبرة ورنين وتفخيم يدعو الى الاعجاب ، بينما نرى أمثال هذه الكلمات في اللغة الفرنسية جافة عاجزة عن احداث الأثر نفسه .

ان هذا الشعب الذي يتوقد ذكاء ، كانت الغلبة بجانبه لانه سلم من الجرمنة ، فلم يسحق ويستحيل كما جرى للبلدان الأوروبية الأخرى من جراء الغزوات التي قامت بها الشعوب الشمالية . فالبرابرة لم يستقروا في بلاده إلا زمنا يسيرا ولم يتمدد تأثيرهم القشور . فنرى القوط الغربيون والفرنجة والقوط الشرقيون يغادرون البلاد أو سرعان ما طردوا منها . واذا كان قدر للومبارديين أن يكثروا فيها فلان الثقافة اللاتينية ما عتمت أن طبعتهم بطابعها . ويقول أحد الرواة القدماء : في القرن الثاني عشر استولت الدهشة على الجماعات الالمانية التابعة لفريديريك بربروس لما رأوا أن هؤلاء اللومبارديين قد استحالوا لاتينا وكانوا يأملون أن يجدوهم لا يزالون محافظين على خصائص عرقهم . « فتخلوا عن خشونة الوحشية البربرية واكتسبوا من تأثير الهواء والتربة شيئا من الرقة واللطف الرومانيين ، واقتنوا التأنق في الكلام والآداب الاجتماعية التي تؤثر من العادات القديمة ونهجوا نهج الرومان القدماء في تأسيس مدنهم وإدارة شؤونهم العامة » .

وظلّ الناس في ايطاليا يتكلمون اللاتينية حتى القرن الثالث عشر . فالقديس أنطونيوس من پادوا يعظ باللاتينية ، والشعب الذي بدأ يرطن بالغة الايطالية الوليدة ، كان يفهم دائماً اللغة الادبية . لأن القشرة الجرمانية التي امتدت حتى صحت الامة ، كانت رقيقة ، وما عتمت أن تقبت فوراً بسبب بعث الحضارة اللاتينية . ولم تتعرف ايطاليا الى الملاحم والقصائد التي أصبحت منتشرة في كل أوربا في عصر الفرسان والاقطاعيين ، إلاّ عن طريق التراجم . وقد قلت فيما مضى إن فن البناء القوطي قد تأخر دخوله إلى ايطاليا وبشكل غير تام . ولما أمتاز الايطاليون البناء في القرن الحادي عشر عمدوا الى اقتباس أشكال الهندسة اللاتينية أو استلهامها . وبتأثير المؤسسات والعادات واللغة والفنون ، وفي أحلك وأشد ليالي القرون الوسطى ، نشهد انعتاق أو انبعاث الحضارة القديمة على تلك الأرض التي وطئها البرابرة ، ثم ما لبثوا ان ذابوا كما يذوب الثلج . لذلك ، إذا شئتم أن تقارنوا بين ايطاليا في القرن الخامس عشر وبين غيرها من الامم الاوربية ، فستجدونها أكثر غنىً وعقاً وتهذيباً ، وأكثر أهلية لتجميل حياتها ، أعني إنها أكثر استعداداً لتذوق وتنتج الآثار الفنية .

لم تكد انجلترا ، في هذه الفترة ، تخرج من حرب المائة سنة ، حتى خاضت تلك الحرب العظيمة المسماة « بحرب الوردتين » . فكان الناس يقتتلون برباطة جأش ، وبعد المعركة يبحثون عن الاطفال العزل ويذبحونهم ، ولم تكن حتى عام ١٥٠٠ إلاّ بلاداً يقطنها المزارعون والصيادون والفلاحون والجنود . وكان عدد المداخن في مدينة داخلية من مدن المملكة لا يتجاوز الاثنين أو الثلاث . وكانت بيوت الاشراف الذين يقيمون في الريف أكواخاً مغطاة بالقش ومطينة بأغلظ أنواع التراب ولاينيرها إلاّ الضوء النافذ من خلال الأغصان المتشابكة . وكانت الطبقات المتوسطة تفترش حصراً من قش وتتوسد حطبة كبيرة مستديرة . فكأن الوسائد الوثيرة كانت وقفاً على النساء . ولم تكن آنيتهم قصديرية بل خشبية .

أما في المانيا فقد نشبت حرب شديدة مجتاحة قام بها « الهوصيّون » ...ites « ... انتزعت السلطة من يد الامبراطور ، وكان الاشراف جهلة سفهاء ، وقد اعتاد الناس اللجوء إلى القوة كلما دعا داع ليقتصوا بأنفسهم . ومن مطالعة المذكرات التي خلفها « هانس ده شوفينيخن » Haus de Schovcinichen وأحاديث لوثيروس نستطيع أن نتبين المدى الذي بلغه الأشراف والمتأدبون في العربدة والفظاظة .

وكانت فرنسا يومذاك في أسوأ عهد من عهود تاريخها ، فالبلاد محتلة يعيث فيها الانجليز وكانت الذئاب على عهد شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١) تتسلل في ضواحي باريس . وبعد أن طرد الانجليز ، هبت العصابات المسلحة والجنود الهاربون يقتاتون من خيرات الفلاح

ويبتزون أمواله ويهينون كلاً منهم ، وان خرافة « اللحية الزرقاء » تتواتر عن أحد السادة السفاحين « جيل ده رتز » — Gilles de Retz — ١٤٠٤ — ١٤٤٠ .

وظلت النخبة المختارة من أبناء الأمة والاشراف في حالة بداوة وتوحش حتى آخر ذلك العصر ، مما حدا بالسفراء البنادقة الى القول ان سيقان السادة الفرنسيين مقوسة ومعوجة لأنهم يقضون معظم أيام حياتهم على ظهور الخيل ويصف رابليه Rabelais في منتصف القرن السادس عشر القذارة القذرة والبهيمية الملازمة للأخلاق القوطية . وكتب الكونت « بالداز ار كاستيليون » Baldassare Castiglione حوالي عام ١٥٢٥ يقول : « ان الفرنسيين يرون ان لا فضيلة إلا في السلاح ، ولا يقيمون وزناً لما تبقى ، ولا يقتصرون على عدم تقدير الآداب ، بل انهم يمقتونها ، ويرون ان المتأدبين هم أحقر الناس ويعتقدون انه ما من عار يعادل العار الذي يصيب الانسان أيّاً كان ، إذا ما قيل له انك كاتب » .

وبالجملة نرى ان النظام الاقطاعي يسود كل اوربا ، وان الناس كالحيوانات الضارية والقوية ، لا يعدون إلا بالأكل والشرب والحرب . أما ايطاليا فقد كانت على نقيض ذلك إذ توشك أن تكون بلاداً عصرية . ان السلام قد توطدت دعائمه بفضل زعامة آل مديتشي ، وان أفراداً من الطبقة البورجوازية كانت تمارس الحكم بأساليب تبعث الاطمئنان . وكان هؤلاء يحذون حذو سادتهم من آل مديتشي ، فيزاولون الصناعة والتجارة وينشئون المصارف ويكسبون أموالاً طائلة ، يتصرفون فيها تصرف القوم المفكرين . ولم تكن هموم الحرب لتنغص عليهم عيشهم . كما كانت الحال سابقاً وينوء بهم حملها المنيف المشؤوم . وعلة ذلك أنهم كانوا يعولون في الحرب على سواعد جماعة من المرتزقة تأصلت فيهم النزعة التجارية وامتازوا بالفهم ، فسرعان ما تتحول الحرب على يدهم إلى ما يشبه المواكب ، ولا يتقاتلون إلا سهواً . وتذكر أسماء معارك كثيرة لم يقتل فيها إلا ثلاثة جنود وأحياناً جندي واحد ، لأن الدبلوماسية تغني عن القوة وتنوب عنها . يقول ماكيافيلي : « يعتقد الملوك الايطاليون » « ان على الأمير أن يحسن تدبيج رسالة أنيقة ، ويتمكن في المراسلات من انشاء جواب » « قارص ، ويظهر في أحاديثه سرعة الخاطر والرقة ويجعلها خديعة ، ويتزين بالحجارة الكريمة » « والذهب ، ويكتنف الرونق طعامه ومنامه ، ويحيط نفسه بكل أنواع الملاذ » . فلا بدع اذا أصبح القوم متأدبين ، كثيري الاطلاع ، ومن هواة الأحاديث المصيبة ولأول مرة ، منذ سقوط الحضارة القديمة ، نرى جماعة من الناس يولون الملاذ الروحية المقام الأول . وقد اشتهر في هذا العصر جماعة النشوريين humanists العاملين بشغف على إحياء روائع الآداب القديمة من أغريقية ولاتينية . فطفقوا ينقبون في مكتبات أوربا عن المخطوطات ليكتشفوها

وينشروها . ولم يكتفوا بإدراك معانيها ومدارستها ، بل أخذوا يستوحونها . وأصبحوا قدماء روحاً وقلباً يعبرون عن أفكارهم بلغة لاتينية فصيحة لا تقل فصاحة عن لغة معاصري شيشرون وفرجيل . فما لبث الانشاء أن أصبح طليًّا والفكر ناضجاً وعند ما ينتقل القارىء من قراءة الأبيات المتعبة ورسائل بترارك المقصدة غروراً وادعاء : الى قراءة المثاني الأنيقة التي نظمها بوليسيان Politien أو قراءة نثر فالاً Valla الفصيح ، يشعر بلذة توهمك أن تكون بلغة جديدة . وتسرع الأصابع والأذن ، من غير وعي ، تقطع الصياغة السهلة التي امتازت بها المقاطع الشعرية ، والبسط الرحيب الذي تتصف به العبارات الخطابية . وفي آن واحد صحت لغة الكتابة وفصحت ، وانتقل العلم من أروقة الأديرة الى القصور فتحوّل من أداة للجدل الى وسيلة للسرور .

ولا يتبادر الى الذهن أن هؤلاء العلماء كانوا يكوّنون فئة صغيرة مجهولة ، منزوية في المكتبات ، بعيدة عن عطف الناس ورعايتهم . بل كان الأمر على نقيض ذلك : فإن لفظة نفوري humanist يلقب بها أحدهم ، كانت كافية في ذلك العصر لتدعو الأمراء كي يشملوه بعطفهم ويغدقوا عليه الهبات . فنرى الدوق لودوفيك صفورزا Ludovic Sfarz من ميلان ينتدب الى جامعة ميرولا Mérula وديمتريوس شالكونديل Démétrius Chalcondyle وينوزر العالم « سيكو سيمونتا » Cecco Simonetta . وأصبح كل من ليوناردو آرتيان ، وبوغجيو ، وماكيافلي ، نواميس (سكرتير) الجمهورية الفلورنسية ، واتخذ ملك نابولي الطونيو بيكادلي A. Beccadelli ناموساً له . ويعد البابا نيقولا الخامس أكبر نصير عرفه المتأدبون الايطاليون . وقد أرسل أحد هؤلاء المتأدبين مخطوطة لملك نابولي ، فشكره الملك على هديته وعدها منة عظيمة . وأنشأ كوزيمو دي مديتشي Cosimo de Médicis مجمعاً فلسفيًّا ، وأحيا موائد المآدب الأفلاطونية . أما صديقه لانديتو Landino فقد أثبت محاورات تدور بين أشخاص انفردوا مرة في دير الكامالدول Camaldules ليتبردوا ، فقضوا عدة نهارات يتجادلون ليعلموا أي الحياتين أسمى : الحياة العملية أم الحياة التأملية . وأقام ابن لورنزو مناظرة تدور حول الصداقة الحقيقية وعين لفائز اكليلاً مصنوعاً من الفضة . وأصبح كبار التجار وعظماء الدولة يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين والعلماء ليتباحثوا معهم في غرفة مزدانة بالتماثيل النصفية الثمينة ، تحوي المخطوطات التي عثر عليها المنقبون والتي تضم بين دفتيها الروائع القديمة .

وتجري الأحاديث بألفاظ مختارة وعبارات مزخرفة دون أن يحسب حساباً للمصطلح الاجتماعي أو الطبقة . وبسائق من هذه الرغبة السمحة الشريفة التي وصمت من أفق العلم

وجلته ، تحوّلت الخصومات المحدودة المطبوعة بطابع القرون الوسطى الى فرح تنعم به العقول المفكرة .

وليس بمستغرب أن تستيقظ اللغة العامية التي هجرت منذ أيام بترارك Pétrarque وتسام في نتاج لون أدبي جديد . فلورانزدي مديتشي ، الصراف الرئيسي والقاضي الاول في المدينة يعد في طليعة الشعراء الايطاليين الجدد . ونشأ الى جانبه بولسي Pulci وبواردو Boiardo وبرني Berni وظهر فيما بعد بمبو Bembo وما كيافيلّي Machiavel وأريوست l'Arioste وهؤلاء جميعاً نماذج قاطعة للاسلوب المتم والشعر الرصين والعبث المضحك والغبطة الرقيقة والهجو الماضي والتفكير العميق . والى جانبهم ، ودونهم منزلة،ظهر عدد من القصاص والرواة المتهكمين والظرفاء استطاعوا أن يكسبوا عطف الأمراء وتفوزوا بالحظوة لدى الرأي العام ، ويرد ذلك الى خفة روحهم وتفننهم ونكتهم . فأصبحت القطعة الشعرية أداة للمديح أو الهجو تتلقفها جميع الأيدي ، ويحرص الفنانون على اقتنائها متنافسة ويروي ماتّيي تسه أن عشرين إعلاناً علقت في اليوم الذي ظهر فيه تمثاله « برسه » Persée . ولم تكن تخلو مأدبة أنيقة ولا حفلة عظيمة من الشعر ، وفي أحد الأيام أجاز البابا ليون العاشر شاعراً يسمى « تيبالديو » Tebaldeo بمبلغ ٥٠٠ دوقة لأبيات راقت له لما تنطوي عليه من سخرية . وفي روما أولع الناس أيما ولع بشاعر آخر « برناردو أكولتي » Bernardo Accolti فكان التجار يغلقون حوانيتهم ويتوافدون ليسمعوه يقرأ على الجماهير في قاعة تنيرها المشاعل ، ويشاهد الأساقفة يحيط بهم الحرس السويسري . فكانت أبياته البارعة تلتمع بالأفكار الممحصة وملحه الأدبية الماثلة التي يوشي بها المثقفون الايطاليون أنغامهم المصوغة ، تستقبلها الجماهير بمفعر التصفيق من كل صوب .

إنني قد تكلمت عن ثقافة فكرية جديدة اتصفت باللطافة والرقة ، ظهرت في إيطاليا في الزمن الذي ظهر فيه الفن الجديد . وكنت أود أن أزيدكم علماً بهذه الثقافة ولا يتأتى لنا ذلك بواسطة عبارات مقتضبة . بل برسم صورة تامة في مناسبة غير هذه المناسبة .

بين يدينا كتاب يعود الى ذلك العصر ، نجد فيه وصفاً للسيد والسيدة الكاملين ، أعني الشخصين اللذين كان المعاصرون وقتئذٍ يعتبرونهما أفضل النماذج . وحول هذه الصور الخيالية تزدحم الصور الحقيقية . أمام عينينا يمر ، يرجع الى العام ١٥٠٠ ، بضيفاته وعاداته وزخرفه وحفلاته الرائعة وموسيقاه ومناقشاته وألفاظه المليحة . والحقيقة أنه أكثر حشمة وروحانية وأغنى بمظاهر البطولة من أبهاء روما أو فلورنسا ، ويمتاز بإظهار

أنبل وأنق فئة من الأشخاص المثقفين المتفوقين ، وقد اتخذوا أوضاعاً تتجلى فيها العظمة . ومن يشأ الاطلاع عليه فليتصفح il Cortegiano المنسوب الى الكونت كاستيليون (١٤٧٨ — ١٥٢٩) .

كان الكونت كاستيليون يعمل في خدمة دوق أوربان ، وقد عمل أيضاً في خدمة خلفه . وكتب هذا الكتاب اذكاراً للأحاديث التي وعاها في بيت سيده الاول . أما الثاني فقد كان مملولاً وكسيحاً من جراء الرثية « داء المفاصل » ، فكانت البطانة النبيلة تجتمع مساء كل يوم عند زوجته ، الدوقة اليزابث ؟ وهي امرأة تؤثر منها الفضيلة والذكاء . فيلتف حولها وحول صديقتها مدام إميليا بيا Emilia Pia كل أصناف الرجال المبرزين الذين كانوا يفدون من جميع أنحاء إيطاليا . وقد عرج عليها البابا يوليوس الثاني في احدى سفراته وقضى عندها بعض الوقت . وكان المكان الذي تعقد فيه الاجتماعات والظروف المناسبة للحديث تليق بأمثال هؤلاء الرجال . كانوا يجتمعون في قصر فخم بناه والد الدوق ، ويقول الكثيرون إنه أجمل ما في إيطاليا من القصور . فالغرف كانت مزدانة بالأواني الفضية ، والطنافس الموشاة بالذهب المزخرفة بالحرير ، والتماثيل والجذوع القديمة المصنوعة من الرخام والفضة . ورسوم « بيرو دلا فرانسكا Piero della Francesca . وجيوفاني سانتي Gioovanni Santi والد رفائيل . ويرى الناظر طائفة من الكتب اللاتينية والأغريقية والعبرية . جمعت من سائر أنحاء أوربا ، ومغشاة . تقديراً لقيمتها ، بالذهب والفضة . أما الحاشية فقد بلغت مبلغاً عظيماً من الظرف حتى عز أن يوجد لها نظير في إيطاليا . فكانت الأيام تنقضي في الحفلات والرقص والمبارزة والأحاديث . يقول كاستيليون : « ان المحادثات الحلوة واللذات العريقة . جعلت من هذا البيت الموطن الحقيقي للسرور » . وقد جرت العادة أن يلهوا بعد العشاء والرقص بحل جميع أنواع الأحاجي . وتعقب هذه السلوى محادثات ودية كثيراً وبالوقت نفسه رصينة ودقيقة تساهم فيها الدوقة . وقد انعدمت في هذه الاجتماعات قوانين الطقوس فيجلس أحدهم حيثما يشاء وكيفما يشاء ، الى جانب سيدة ، ولم تكن المحادثة على شيء من التنظيم أو الضبط ، مما يفسح المجال للإستنباط والابداع . وفي مساء أحد الأيام ، بناء على طلب احدى السيدات ، ارتجل « برناردو أكولتي » قصيدة بديعة يمدح بها الدوقة . ولما فرغ من إلقائه ، أمرت الدوقة كلاً من مدام مرغاريتا ومدام فريجوزا أن ترقصا . فتناولت الواحدة يد الأخرى وأعد الموسيقي المطرب « بارلتا Barletta » آلته ثم بدأتا الرقص على نغم الموسيقى . بدأ الرقص وئيداً ثم ما عتم أن أصبح حيناً نشيطاً . وحوالي نهاية اليوم

الرابع لاحظوا أن الشمس أوشكت أن تشرق ، ذلك لأنهم قضوا الليل كله في محادثات طلية :

« فتحت نوافذ القصر المطلة على قمة جبـل « كاتاري » Catari الشامخة ورأوا فجراً جميلاً ووديعاً بدأ يبزغ من جهة المشرق . اختفت النجوم كلها من السماء ولم يعد يرى فيها إلا وصولة الزهرة ، الوديعة » التي تقيم على تخم « الليل والنهار . ويخيل أن نسيماً حلواً ينبثق عنها ويعم الفضاء بنداوته المؤثرة وبدأ يوقظ أجواق الطيور الحيوية في الغابات الثرثارة التي تكسو التلال المجاورة » .

ونستطيع الآن ، استناداً الى هـذه القطعة ، أن نحكم على نصيب الانشاء من اللذة والاناقة والزخرفة . ويعد بمبو ، وهو أحد المتحادثين ، أغزر الناثرين الايطاليين مادة ، وأكثرهم تهذيباً للأسلوب وتفصيحاً . وتتنوع في هـذه الاجتماعات ألوان الأنس واللطافة فتزف للسيدات ألفاظ التقريظ ثناء على جمالهن وكياستهن وفضيلتهن ، ويثنى على السادة لشجاعتهم وتفكيرهم وعلمهم . ومن مزيتهم أنهم يتبادلون الاحترام ويحرصون على ملاطفة بعضهم بعضاً . وهذه الظاهرة هي منشأ السلوك الحسن مع الناس والجاذب اللذيذ الذي يسود جو المجلس الظريف . ولا يفهم من ذلك أن ناموس الأدب ينافي السرور : فكثيراً ما كانت تتخلل المحادثات مناوشات ناشئة عن الألفة ، ونوادر ، وحكايات قصيرة وقارصة وطيبة ، ومداعبات وعبارات ظريفة وتحرد لا يلبث أن يزول . وجرت في أحد الأيام محاولة لتعريف الظرف الصحيح ، فأجرت سيدة وروت القصة التالية حسب المثل القائل : والضد يظهر حسنه الضد : « زارها مؤخراً سيد يتبهج في حياته على الطراز القديم ، وعدا ذلك فهو جندي ، وقد أفسدت الحياة الريفية الفظة طباعه . فأخذ يحصي لها ما قتل من الاعداء ويشير ان الحماس بلغ به أشده ، فانتقل من الكلام والرواية الى الحركة ، وأراد أن يشرح لهـا كيف كانوا يستعملون السيف في حالتي الطعن والضرب . وقد اعترفت ، والابتسامة تعلو ثغرها ، إن القلق بدأ يساورها ، واتجهت ببصرها صوب البـاب ، وهي لا تنفك تتساءل في كل برهة إذا كان ينتهي الأمر بقتلها . قس على ذلك طائفة عائلة من التعبيرات التي تظهر في كل آونة أهمية المحاورة ورصانتها . ويلاحظ أن الفرسان كانوا مطلعين على الأدبين الاغريقي واللاتيني ، ويعرفون التاريخ ، ويلمون بشؤون الفلسفة والفلسفة المدرسية . فاذا ما تناول الحديث غير هذه الأمور تتوسط السيدات ، فيمنعنهم قليلاً ويدعونهم للعودة الى البحث في مسائل أكثر مساساً بحياة الناس ، ولا يرغبن كثيراً أن يسمعن أثناء المجادلة ذكر أرسطو وأفلاطون وشراحهما المصوصين ، ويمقتن بحث النظريات المتعلقة بالحار والبارد . والعرض والجوهر . وسرعان ما يعود المتحدثون إلى سياق الكلام الجميل المتعلق بالشؤون الدنيوية ويكفرون عن حديثهم

في العلم وما وراء الطبيعة، بخطب طريفة ولذيذة . ومهما كان الموضوع صعباً والنقاش حامياً . فإنهم يحرصون دائماً على التعبير بأسلوب أنيق متقن . إنهم يدققون كثيراً في دلالة العبارات ، ويفرطون في تدقيق معاني مفردات اللغة ، كما سوف يصبح المحدثون المتأنقون الذين يسميهم قيصر « رامبويه » أولئك الذين عاصروا ڤوجلا Vaugelas ووضعوا أسس أدبنا الكلاسيكي . لكن أسلوب الايطاليين الفكري أكثر شاعرية ولغتهم أكثر موسيقية . وبسبب وفرة الايقاع فيها وبين أواخرها ، يستطيع الايطالي أن يخلع على الأشياء المألوفة الجمال والانسجام ، ويحيط بعض الأشياء الجلية بإطار من الزخرفة الرقيقة التي تغري باللذات . وإليك قطعة يصوّر فيها الكاتب آثار الشيخوخة السيئة . فالاسلوب ، لا يختلف عن السماء الايطالية ، يسكب نوراً مذهباً حتى على الخرائب ، ويحوّل مشهداً محزناً إلى صورة فنية رائعة :

« في هذا العهد تذبل وتسقط في قلبنا أزهار الفرح الغضة ، كما تسقط أوراق الأشجار »
« في الخريف . وعوضاً من الخواطر الرائقة والصافية ، يتوارد علينا الحزن ، بلون السحابة »
« الدكناء ، مصحوباً بألف بلية . ولا ينحط الجسم فقط ، بل ان الفكر يعتل أيضاً ، ولا »
« يبقى من ملاذه الغابرة سوى ذكرى لازبة ، وخيال ذلك العهد الحبيب النضر . فاذا عدنا »
« الى ذلك الماضي بالفكر ، يخيل إلينا أن السماء والأرض وكل الأشياء تحتفي بنا وتضحك »
« حولنا . ويزهر في أعماق نفسنا ربيع السرور اللطيف ، كما يزهر في بستان جميل وبهيج »
« ولهذا السبب ، عندما نجنح بحسّنا إلى المغيب ، في الفصل البارد من عمرنا ، وتحرمنا »
« الاستمتاع بلذاتنا ، يجمل بنا أن تفقد الأذكار بفقدها ، وأن نلوذ بحيلة تعلمنا السلوان »

وأيّاً كان موضوع الحديث ، فانه لا يجرد الحديث من روائه . فبناء لرغبة الدوقة ، ينهض كل فرد لشرح بعض المزايا التي تتضافر على جعل الفارس تاماً والسيدة مكتملة ، ويُبحث نوع التربية التي تعمل على تهذيب النفس وتقوية الجسم لا المساهمة في أعمال المجتمع المدنية فقط ، بل الظرف الذي تتطلبه الحياة الاجتماعية . لاحظوا كل ما كان يجب توفره وتنفذه في الرجل الذي تمّ تهذيبه ، من رقة وذوق صائب وتنوع في المعارف . ويخيل إلينا أننا بلغنا درجة عظيمة في التمدن ، ومع ان ثلاثمائة عام قد انقضت على ذلك العصر ، انصرفنا خلالها لاقتباس أساليب التهذيب وفنون الثقافة ، لا نزال نجد في تلك المحاورة أمثالاً يقتدى بها ودروساً ينتفع منها .

« وينبغي أن يكون رجل البلاط عندنا متثقفاً في الآداب ثقافة تتجاوز الحد الوسط »

« وعلى الأقل فيما يسمى علم البيان ، وأن يعرف الى جانب اللغة اللاتينية ، الاغريقية أيضاً »
« وذلك لوفرة التنوع في التآليف القيمة التي كتبت بهذه اللغة ... ، وأن يكون مطلعاً »
« على ما أنتجه الشعراء والخطباء والمؤرخون ، وأن يروض نفسه على الكتابة شعراً ونثراً »
« وخصوصاً بلغتنا العامية . فضلاً عن السرور الذي يشعر به في أعماق نفسه ، فلا يستبعد »
« أن تجمعه المصادفات السعيدة بالسيدات اللواتي يحببن عادة هذه الألوان الطريفة . ولا »
« يرضني الفارس إذا لم يكن موسيقيًّا ويحسن استعمال عدة آلات . لأن الموسيقى لا »
« تقتصر مهمتها على الانشراح وتسكين الهموم ، بل كثيراً ما تتخذ وسيلة لتسر السيدات »
« لأن قلوبهن الرقيقة والحنونة سرعان ما تتأثر وتنتشي من الايقاع وعذوبته » .

لا يقصد بذلك أن يصبح المرء موسيقيًّا مفلقاً وأن يصطنع الظهور فتدليل على قريحة فريدة في نوعها . فالقرائح لا شأن لها إذا لم يفد منها الجمهور ، ولا يجب أن يكون رائدنا الغرور في تحصيلها ، بل لكي تدنينا من قلوب الناس ولا يجب أن نروض القرائح لننال الثناء من أفواه الناس بل لنبعث السرور في نفوسهم . لذلك يتحتم علينا أن لا نظل غرباء عن فن من الفنون اللذيذة .

« وهناك شيء أقدر أهميته العظمى وينبغي على الفارس أن لا ينبذه ظهريًّا : هو موهبة الرسم والعلم بأسرار فن التصوير » . وهذه البراعة زينة الحياة المثلى المهذبة التي ينبغي أن يعيرها الذهن التفاتاً ويتعلق بها كما يتعلق بكل ما هو أنيق دون أن يبلغ حد الافراط . لأن الموهبة الحقيقية التي تناط بها جميع الفنون هي الذوق الصائب « وشيء من إصالة »
« الرأي والفطنة ، والاختيار الرصين ، ومعرفة القليل والكثير عن الأمور وما إذا كان »
« انجازها قد تم في الوقت الملائم أو في غير أوانه . فمثلاً ، عندما يكال المديح لهذا الفارس »
« ينبغي أن لا يوافق علانية عليه وان كان المديح في موضعه ، بل أن يدفعه بحشمة ، »
« مظهراً دائماً ومتمسكاً حقيقة حرفته الرئيسة ، ألا وهي تقلد السلاح وأن لا يرغب في »
« المواهب الاخرى إلا اذا زانت تلك الحرفة . واذا شاء أن يرقص على مرأى من أشخاص »
« كثيرين ، وفي مكان يغص بالناس ، أعتقد أنه يتحتم عليه أن يحتفظ بشيء من العظمة »
« تلطف حدتها الحركات التي تنم عن لطف وكياسة . ومتى دعي الى ضرب المعازف ، »
« فليتظاهر أنه لا يروم غير اللهو وأنه مضطر الى تلبية الرغبة ، وهب كأنه ينهض للأمر »
« على الوجه الاتم ، ويملك زمامه فأرغب اليه أن يكتم ما اقتبس من علم وما كابد من نصب »
« حتى بلغ هذه الدرجة من المعرفة . وليتظاهر أنه لا يعلق أهمية عظمى على هذا الضرب »
« من الاعمال ، مع انه يجيدها ، كي يحمل الآخرين يكنون له تقديراً عظيماً » .

ولا يجدر به أن ينفعل من حذق لا يتأتى إلاّ لأبناء بجدتها ، وينبغي أن يحمل الناس على احترامه ، وان لا يتمادى في ارسال النفس على سجيتها وان يظهر تحفظاً في سلوكه وتحكماً في زمام أموره ، وان يبدو ساكن الطائر كأنه إسباني الأصل . ولتكن ثيابه نظيفة ومتأنقاً في ارتدائها ، وليكن ذوقه في ذلك دليلاً على الرجولة لا على التخنث ، وليختر اللون الأسود ، لأنه يمد عنوان الخلق الوقور الرصين . وكذلك ينبغي أن لا يستخفه الطرب أو تبطره حدة ذكائه ، وان لا يهيج هائجه أو يصاب بالأثرة . ليتحاش الفظاظة والكلمات النابية التي تندى لها الجباه وتحمر لها خدود السيدات خفراً . وليكن مهذباً ، حسن الطواعية ، لين العريكة مع الناس ، ويحسن الحديث الفكه ورواية الأقاصيص السارة بأسلوب لا ينافي الحشمة . وان أفضل وصية يمكن تزويده بها هي أن يسوس أموره بحكمة بغية أن يقع من نفس السيدة موقعاً حسناً . ومن هذا الالتفات الحاذق ، نرى أن صورة الرجل تمت بصلة إلى صورة السيدة وان الألوان الدقيقة التي عوّل عليها في رسم الصورة الأولى ، تصبح ألطف وأنعم متى ساهمت في رسم الصورة الثانية .

«كما انه يندر وجود بلاط في الدنيا ، مهما كان عظيماً ، يتوفر فيه الجمال والسناء »
« والبهجة دون أن تغشاه النساء ، كذلك لا يوجد فارس على الاطلاق يتحلى باللطف والظرف »
« والجرأة فوبتهض لامرجل اذا لم يستمتع بعاشرة النساء وحبهن وعطفهن . وتظل الصورة »
« التي تخيلها للفارس ناقصة جداً اذا خلت من عنصر النساء اللائي يستطعن أن يمنحنها شيئاً »
« من الظرف الذي يضفيه على الحياة في البلاط فيجعلها جنة مكتملة » .

«وعلى السيدة التي تحيا في البلاط ، أن تكون على شيء من البشاشة المستحبة كي »
« تستطيع أن تتحدث بلطافة ، إلى أي كان من الناس ، أحاديث لذيذة وشريفة ومناسبة »
« للمكان والزمان وتلائم سامعها ، وان تكون على نصيب من المجون الموسوم بالهدوء »
« والحياء والحشمة التي تسبغ كل أعمالها بصبغة الرزانة والحكمة . وفيما عدا ذلك ينبغي »
« أن تكون على شيء من حدة الذهن تجعلها تظهر انها بعيدة عن كل غباوة وتفاهة ، »
« وأن تجمع الى ذكائها لوناً من ألوان الدماثة لا تجعلها في نظر الناس عفيفة ورشيدة »
« ووديعة فقط ، بل مستحبة وأريبة ونبيهة وناعمة . لذلك ينبغي أن تختلف الى الأوساط »
«المسيرة التي تتوفر فيها المتناقضات ، وتسترسل الى مدى معين على شريطة أن لا تتجاوزه » .

« واذا كانت هذه السيدة ترغب في كسب الصيت الحسن ، كأن يقال عنها انها شريفة »
« وفاضلة ، فلا يجب أن تتطرف في الظهور بمظهر التقية الورعة ، وأن تبدي الاشمئزاز والوجل »
« من المعاشرات والمحادثات التي تسترخي فيها قليلاً قيود الآداب ، بل من الأفضل أن »

« تمثّلها كي يتبادر الى أذهان الناس عند ذلك أنها تتشدد في اخفاء سر مصون يتعلق » « بها وتخشى أن يتصل علمه بأحد . لأن الأساليب التي تتصف بالفظاظة والجفوة ممقوتة » « دائماً . ولا ينبغي عليها ، اذا ما شاءت أن تكون محبوبة وحرة ، أن تتفوّه بألفاظ » « بذيئة قبيحة ، وتظهر دالة تعدو حدود الاعتدال والوقار وتنم عن فساد سيرة ، فتحمل » « الناس على القيل والقال واتهامها بما قد تكون بريئة منه . ولكن إذا قدر لها أن توجد » « في مكان تدور فيه أحاديث عليها طابع القحة والفساد ، فيجب أن تتظاهر » « بشيء من الحياء والخجل » . وعليها ، إذا كانت ذات حيلة ومهارة أن تغير وجهة الحديث كأن تجعله يدور من حول مواضيع أكثر أدباً ونبلاً . وان الأمر ليس فوق طاقتها ، لأن تربيتها لا تهبط كثيراً عن مستوى تربية الرجل ، إذ عليها أن تطلع على الآداب والموسيقى والرقص وتتقن الرقص والحديث الممتع ...

* * *

وتجمع السيدات اللواتي يحضرن المحادثة بين القدوة والمبدأ ، ويسلم ثرثرتهن وعقلهن إلى مدى محدود ، ويصفقن عندما يشهدن حماس « بمبو » ويصغين إلى نظرياته الأفلاطونية النبيلة في الحب الشامل الصافي . وكثير من النساء الايطاليات قد جمعن في ذلك العصر بين المواهب الرفيعة والثقافة العالية . ومن بين الصور التي ظهرت في ذلك العصر ، والموجودة حالياً في متحف الوفيزي ، والتي تمثل البنادقة الشاحبين المفكرين يرتدون الثياب السود ، وصورة « الشاب » من ريشة فرنشيا Francia (١٤٥٠ — ١٥١٨) ، يتماثل فيه الاحتدام والسكون ، وصورة جان دو نابل « Jean de Naples » الناعمة ، ذات العنق الطويل الذي كعنق الاوزة ، و « الشاب في التمثيل » لبرونزينو Bronzino ، من بين كل هذه الوجوه الذكية الهادئة ، وكل هذه الأزياء التي تجمع بين الأبهة والفخامة والخفرة ، يمكنه أن يكوّن فكرة عن النعومة الفاتنة ، والمواهب الغزيرة ، والثقافة المكتملة التي تركزت في هذا المجتمع الذي سبق عصرنا بثلاثة قرون ، وكان يعني بشؤون الفكر ، ويتذوق الأناقة ويمارس اللطافة ، على نحو ما نفعل نحن اليوم ، بل ربما تفوق علينا في هذا المضمار .

موجودة ، انه يهتم بتحصيل فلسفة كاملة . وما من بلاد كألمانيا يتوفر فيها ذوق عظيم جداً ، واهتمام مألوف ، وذكاء طبيعي لتفهم النظريات المجردة المالية . هذه البلاد هي وطن المديطيقية والمذاهب الفلسفية . لكن هذا الفيض في التأملات الرفيعة ألحقت أذى بفنون الرسم . فالمصورون الألمان يبذلون قصارى جهدهم ليعبروا على خاماتهم أو في تقدمهم على الجدران من خواطر إنسانية أو دينية ، وان الشكل واللون يناطان بالفكرة السائدة . ولهذا جاء فنهم رمزيًّا . وتشاهد على الجدران دروس في الفلسفة والتاريخ . ومن يذهب الى ميونخ يشاهد ان كبار الفنانين فلاسفة ضلوا السبيل في تيه التصوير ، يحسنون مخاطبة العقل لا النظر ، وكان الأولى بهم أن يستعيضوا عن الريشة بالقلم :

لننتقل الآن إلى انجلترا . فنرى الرجل في الطبقة الوسطى يعمل وهو فتى في مخزن أو مكتب حيث يقضي عشر ساعات يوميًّا ، ولا ينقطع من العمل حتى بعد عودته إلى بيته ، انه يبذل كل قواه العقلية والجسدية ليكسب ما يستطيع من المال . ثم يتزوج وينسل أولاداً كثيرين فيضاعف عندئذ جهده ويزداد نصبه . والمنافسة في تلك البلاد عنيفة والأقاليم قاسٍ والحاجات كثيرة . ولا يتبادر الى الذهن ان الغني أو النبيل أو السيد الجليل ينعم في بحبوحة من الفراغ وخلو البال لا يتاحان للأول ، وعلة ذلك أن الطبقة الرفيعة مشغولة ومثقلة بواجبات عظيمة . فالسياسة تسترعي انتباه جميع الناس ، والذهن يقتات بما تولده اجتماعات الجماهير ، واللجان ، والنوادي ، والصحف كالتايمس Times التي تقدم لقارئها صباح كل يوم كتاباً تامًّا ، وأرقاماً ، واحصائيات ، وكتلة ثقيلة من أنباء الحوادث تبعث التخمة ، فلا تؤكل ولا تهضم ، وفوق كل ذلك ، قضايا دينية خطيرة وتشييد مؤسسات ، والقيام ببعض المشاريع ، وشغل البال الذي لا يني ينقب عن الوسائل التي تؤدي الى تحسين الحالة العامة والخاصة ، وهناك أمور تتعلق بالمال والنفوذ والجاه والوجدان ، وتفكير يتعلق بشؤون مادية أو خلقية . ولذلك نرى التصوير والفنون الأخرى الحسية تنزوي في مكان قصي أو تسقط من تلقاء نفسها الى مكانة أدنى : اذ ليس لدى القوم فضلة من الوقت للإهتمام والاستمتاع بها . ولا يلتفت الذهن إلاّ الى شؤون تفرض أهمية وضرورة ، وهم لا يبدون اهتماماً بها إلاّ بسائق من المجاملة والذوق العصري الطاغي ، وليست في اعتبارهم الاّ طرفة بسيطة ، وموضوع دراسة في رأي بعض الهواة . ومع كل ما ذكرنا ، فانه لا يندر وجود أشخاص أخذوا على عاتقهم حماية الفنون : فيتبرعون بالمال لتأسيس متاحف وشراء رسوم مبتكرة وإنشاء مدارس ، كما انهم على استعداد لبذل أموالهم في أي أمر آخر : كأن يبذلوا الأموال لنشر الانجيل ووقاية القطط وشفاء المصابين بالسوداء . ولا يعزب عن بال هؤلاء

الفصل الرابع

الشروط الثانوية

يقودنا هذا الكلام لنميز طابعاً آخر لهذه الحضارة وشرطاً آخر لنشوء التصوير الرفيع. كانت الثقافة الفكرية فيما خلا من الأزمنة تتصف بالسماحة دون أن يحظى التصوير بنماء مماثل. ففي عصرنا، مثلاً، قد كدس الناس، فيما عدا المعارف التي خلفها القرن السادس عشر محصول ثلاثمائة عام من الاختبارات والاكتشافات جعلتهم أكثر علماً وأغزر أفكاراً من كل زمان مضى. ومع ذلك، فاننا لا نستطيع القول أن فنون الرسم في أوربا الحديثة تنتج روائع فنية تضارع الطرق الفنية التي ظهرت في ايطاليا في عصر النهضة. ولكي ندرس الآثار الفنية المطبوعة في عام ١٥٠٠، لا يجب أن نقف عند حد ملاحظة الذكاء الحاد والثقافة المكتملة التي كان يملكها معاصرو روفائيل. بل ينبغي أن نشرح ونعرّف هذا النوع من الذكاء وهذا اللون الثقافي، وأن نقارن بين ايطاليا والقارة الاوربية أولاً، وبينها وبين أوربا الحالية التي نعيش فيها اليوم.

لنتوجه بادىء ذي بدء الى المانيا التي تعد حقيقة في طليعة البلدان الاوربية علماً. فهناك وعلى الأخص في ألمانيا الشمالية، يحسن الجميع القراءة. وزيادة على ذلك، يقضي الشبان في الجامعات من خمس الى ست سنوات. وليس هذا التعليم مقتصراً على الشبان الأغنياء أو الميسورين، بل متاحاً للجميع على وجه التقريب من الطبقة المتوسطة، ولأفراد قلائل من الطبقة الدنيا، يقاسون في سبيل ذلك مشقات كثيرة وضيقاً عظيماً. وينظر الى العلم في تلك البلاد بعين الاكبار والاجلال، فيولد أحياناً التكلف والغرور وغالباً الغطرسة. وأضحى كثير من الشبان يستعملون النظارات لا لتساعدهم على النظر، لأن عيونهم سليمة، بل لكي يضفوا على أنفسهم مظاهر العلماء. وان ما يشغل رأساً ألمانياً وهو في سن العشرين، ليست الرغبة في الظهور في نادٍ أو مقهى، كما هي الحال في فرنسا، بل الارادة التي تدفعه لتحصيل نظرات شاملة عن الانسانية والعالم والفوق‌طبيعة والطبيعة ومن أشياء أخرى كثيرة. وبكلمة

ما ينجم عن تبديد هـذه الأموال من فوائد صوبية واجتماعية : فيعتقدون أن الموسيقى تلطف وتلين الجمهور ، وتقلل السكر يوم الأحد ، وأن فنون الرسم تنشىء فرجاً من العمال الذين لا يستغنى عنهم في صنع الأقمشة والحلي ، ولهذا ينعدم الذوق في كل ما نرى ، لأن الاحساس بالأشكال الجميلة والألوان الجميلة وهو ثمرة التربية ، يكون عناية برتقالة عت في تربة حارة وكثفت مبالغ باهظة ، فطعمها على الغالب زنخ أو حامض . وليس المصورون المعاصرون سوى عمال ذوي موهبة مدققة ، متقنة ، ضيقة . ويتجلى التنطع وعدم الطلاوة فيما يرسمون من حزمة قش أو تنيئة ثوب أو نبتة صرخس . فالجهد الدائم والانتباه المتصل الذي سخر جسم الانسان وتفكيره قد أحدث تشويشاً في مشاعرهم ، وتصوراتهم ، وأصبحوا لا يأبهون لانسجام الألوان ، فيصبون على القماش آنية مملوءة بالأخضر السبانخي . ويصنعون أشجاراً من التوتيا ، أو الحديد المصفح ، ويصورون الأجسام باللون الأحمر القاني ، وبامتلاء مدارسة السحَن والبراعة في معرفة الطابع الخلقي ، فان تصويرهم منغص ، وتمثل معارضهم القومية للأجانب مجموعة من الألوان المغيظة ، المتنافرة ، العنيفة .

وأننا لن نصدم من يقول أن هؤلاء وأولئك ألمان وانجليز ، تؤثر عنهم الرصانة ، وينتسبون الى الطائفة البروتستانتية ، تعمقوا في دراساتهم أو انغمسوا في هواجسهم المادية ، وان الناس في باريس ذوو ذوق ويتشدون اللذة . والحقيقة أن مدينة باريس في الوقت الحاضر هي المدينة الأولى بين مدن العالم التي اشتهر أهلها بحب الحديث ، والقراءة ، ونقد الفنون ، وتمييز خفايا الجمال الدقيقة ، حيث يتاح للغرباء الذين يؤمونها أن يتذوقوا الحياة المتجددة المتنوعة البهجة . ومع ذلك فإن فن التصوير الفرنسي ، ان كان يفوق سواه في البلاد الأجنبية ، فهو لا يعادل التصوير الايطالي في عهد النهضة ، وذلك باعتراف الفرنسيين أنفسهم . وعلى كل حال ، فانه يختلف عنه ، والآثار الفنية تنبىء عن ذهنية أخرى ، وتنم عن عقول مختلفة كل الاختلاف . في التصوير الفرنسي يتوفر عنصر الشعر أو التاريخ أو الفاجعة أكثر مما يتوفر عنصر الفن ، وهو دون التصوير الايطالي في درجة الاحساس بجمال الجسم العاري وروعة الحياة البسيطة المجردة ، فقد كدَّ وسعى كي يمثل المشاهد الحقيقية ، والزي الحقيقي الخاص ببلدان بعيدة وأزمنة سالفة ، وانفعالات النفس المجروحة ، ومظاهر الطبيعة المؤثرة . وهكذا أصبح التصوير نداً للأدب : فانه نقب واستغلَّ نفس الحقل ، واستجاب للرغبة الجشعة في المعرفة ، والروح الاثارية ، والحاجة للانفعالات القوية ، والحس المرهف المريض واستعمال ليلائم أذواق أهل الحضارة ، الذين أنهكهم العمل ، وحدَّت الحياة الخاملة من نشاطهم ، وأفسدتهم ، وسببت أفكاراً معقدة ، واشتدت شهوتهم الى الترف ، والاحساسات الخاملة ،

وهدوء العقول . وقد حدث تحوّل عظيم في خلال القرنين الخامس عشر والتاسع عشر : فان حشو الرأس بالمعلومات ، والبلبلة التي اعترت ذهن الانسان ، أحدثنا ارتباكاً تجاوز الحد . ففي باريس وفرنسا نلحظ حوادث عظيماً يعود إلى سببين : أولاً أصبحت المعيشة باهظة الثمن اذ أن طائفة من أنواع الرفاهية باتت ضرورية . فالشخص ، وإن كان متنوعاً وعزباً ، يحتاج الى مجاجيد وصحف وكراسي ، ومتى يتزوّج يصبح في حاجة الى رفوف مزينة ، ومسكن جميل مؤثث بأثاث غالٍ ، ومجموعة لا تعد من الاشياء التافهة ، ولا سبيل للحصول عليها إلاّ بالمال الذي لا يكسب إلاّ بعد الكد والعناء ، إذ لا يمكن أن نسرق من قارعة الطرق ، أو نصادر على نحو ما كان يجري في القرن الخامس عشر . وهكذا ينفق الانسان معظم أيام حياته في جهود عانية . وعدا ذلك ، فان كل فرد يبغي الوصول الى هدفه . وعسا أننا نعيش في بلاد تخضع للنظم الديموقراطية ، حيث تحرز المناصب بالمسابقة ، وتنال بالثبات ، وتكتسب بالمهارة ، فيأمل كل فرد منا أن يصبح يوماً ما وزيراً أو صاحب ملايين . وهذه المنافسة تجعلنا نضاعف عماننا وهمومنا ونزيد في ارتباكنا .

ومن جهة ثانية ، إننا نعيش في مدينة يبلغ عدد سكانها ١٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة وهو عدد كبير وزائد عن الحد . وقد رسخ في أذهان الناس أن الأمل بالنجاح عظيم في باريس، فأخذ يؤمها الناس بحدوهم الفكر والطمع والنشاط . فأصبحت عاصمة البلاد ملتقى عامًّا لجميع الرجال المتفوقين وذوي الاختصاص ، فتتسع بينهم اختراعاتهم وبحوثهم ، ويثري بعضهم بعضاً ، وتتتابع حتى تتولد من المطالعات والمسرح والحادثات المتنوعة . والدماغ في باريس بعيد عن السلامة والانتظام : هو ملتهب ومعنىً ومهتاج ، وغزواته من تصوير وأدب ، تتأثر من هذه الحال ، حيناً نصيب خيراً وغالباً ما تعني بشر .

أما في ايطاليا فلم تكن الحالة كما ذكرنا . فلا تقع العين على مليون من الناس يعيشون متكتلين في بقعة ضرب نطاق حولها . بل كانوا يعيشون في مدن عديدة يتراوح عدد سكانها بين الخمسين والمائة أو المائتي ألف نسمة . ولم يكن لهم عهد بهذه المطامع المتزاحمة ، والرغبات الجمعة الثائرة ، وحشد الجهود ، والافراط في النشاط البشري . وكانت المدينة تضم صفوة من الناس ، لا جمهوراً من السوقة كما هي الحال عندنا . وعدا ذلك ، فقد كانت الرغبة في الرفاهية متوسطة ، والاجسام تتحمل الخشونة والشظف ، فكان الناس يسافرون على ظهور الدواب ويعيشون بسرور في الهواء الطلق . وتعد القصور الكبيرة التي بنيت في ذلك العصر نقمة ، لكنني لا أدري اذا كان أحد أفراد الطبقة المتوسطة في العصر الحاضر يرضاها مسكناً له ، لأن الحياة فيها عسيرة ، ويتعذر على قاطنها أن يقي نفسه البرد . وتعد المقاعد

المنحوتة المزدانة برؤوس أسود أو آلهة ترقص ، روائع فنية ، لكننا نجدها اليوم صلبة وخشنة ، لأن داراً حقيرة في عصرنا هذا ، أو غرفة بواب يقوم على حراسة بيت أحد الأغنياء ، مجهزة بوسائل التدفئة ، هي أكثر رغداً من قصر ليون العاشر وبوليوس الثاني . وعلة ذلك أنهم لم يكونوا بحاجة الى كل هذه الضروب التافهة من الرفاهية التي لا ندري كيف يمكننا التخلص منها اليوم . كان جل همهم ينحصر في حيازة الجميل لا العيش الرغد ، ويهتمون بإحكام بناء العواميد وإتقان الصور ، لا في الحصول على دواوين وأوان صنعت على النسق الصيني . وربما ان الطبقات كانت موصدة في وجه الشعب ولا يلجها الا من يحرز مجداً عسكرياً أو يفوز بعطف الأمير ، وبعض قطاع الطرق الذين طارت شهرتهم في الآفاق ، وخمسة أو ستة سفاحين متفوقين ، وبعض الندامى الطفيليين ، فلم يكن يشاهد في المجتمع يومذاك هذا التناقض الحاد العنيف ، وهذا الاضطراب في الحياة الذي يماثل حركة النمل في قريته ، وهذا العناد الدائم المتواصل الذي يتصف به كل ما بغية أن يتجاوز الآخرين .

يستنتج من كل ما ذكر أن العقل الانساني كان وقتئذ أكثر اتزاناً مما هو الآن في اوربا المعاصرة ، ومدينة باريس الحالية التي نقطنها ، وعلى الأقل كان أكثر ملاءمة للتصوير . ذلك لأن فنون الرسم تتطلب، كي تزدهر، تربة موافقة ، ليست بوراً ولا تعدت حراثتها . كانت التربة الأوربية في العهد الاقطاعي متكتلة وصلبة . أما اليوم فانها قد أضحت متفتتة . فقبلاً لم تحل فيها المدنية عرانها كثيراً ، أما اليوم فانها قد أكثرت الأتلام حتى أصبحت لا تحصى . ولكي يستطيع مصور كرافائيل أو تيسيان أن يثبت بيده على الخامة الأشكال الرفيعة البسيطة ، يجب أن تتجلى هذه الاشكال طبيعيًّا في ذهن من يحيط بهم من الناس ، ولكي تتجلى طبيعيًّا في أذهان الناس ، ينبغي أن لا تعدو الأفكار على التصورات فتخفيها وتمحوها .

دعوني أقف هنيهة عند هذه الكلمة لأنها رئيسة . من خواص الثقافة المتطرفة أن تستهدف القضاء رويداً رويداً على الصور لصالح الأفكار . فبتأثير التربية المستمر ، والحادثة والتفكير والعلم ، يتشوه الوحي البدائي ويتفكك ويتلاشى لتحل محله أفكار مجردة ، وكلمات صنفت تصنيفاً جيداً ، وضرب من الجبر . وأصبح مألوفاً لدى الفكر من الآن فصاعداً ، أن ينتهج طريقة التعقل البحت . واذا حاول العودة الى التصور ، فلا يتسنى ذلك له إلا بمشقة وعناء ، وبقفزة عنيفة محمومة ، ولون من ألوان المَسِّ hallucination المشوش الخطر ، تلك هي بعينها حال فكرنا في الوقت الحاضر فلا يستدل منها اننا مصورون جبلة . وقد أفعموا عقلنا بأفكار مختلطة ، متلونة ، متعددة ، متشابكة ، وصبت فيه مدنية بلادنا

والمدنيات الأجنبية والقديمة والحديثة نبضها وفضلاتها . ألفظ مثلاً كلمة « شجرة » على مسمع من رجل عصري ، فيتبادر الى ذهنه أن المقصود ليس كلباً ولا خروفاً ولا أثاثاً ، ويختزن هذه الاشارة في رأسه في مكان مرسوم واضح . وقد تواطأنا في العصر الحاضر أن ندعو هذه الظاهرة فهماً . ثم أن مطالعاتنا وعلومنا قد صرت ذهننا بالإشارات المجردة ، وعاداتنا في التنسيق تقودنا منطقياً وقياساً من إشارة الى أخرى . وليس لنا الآن أن نستشف الأشكال الملونة جزءاً جزءاً وهي التي لا تمكث في داخلنا ، بل ترتسم بغموض على الخامة الداخلية ثم لا تلبث أن تتلاشى . وإذا توصلنا الى حفظ هذه الأشكال ومعرفتها بدقة ، فالفضل يعود الى الارادة ، وبعد مرانة طويلة وتربية مضادة أخضعنا تربيتنا العادية . وهذا الجهد الجبار يؤدي الى العذاب والحمى . فكبار الملونين في أيامنا ، من أدباء ومصورين ، ليسوا إلا أصحاب خيالات وأوهام ، أصابهم الاعياء ، واعترتهم البلبلة والتشوش . أمثال : هيني ، وهوغو ، وشلي ، وكيتس ، والبرابت ، وبراونغ ، وادغاربو ، وسوينبرن ، وبلزاك ، ولا كروا وغيرهم . ولم يخل عصرنا من الكثيرين الذين مهروا بجبلة فنية ، لكنهم جميعاً على وجه التقريب قاسوا كثيراً من بيئتهم وخط تربيتهم . ويعد جيته الشخص الوحيد الذي احتفظ بتوازنه ، ومرد ذلك الى حكمته ، وحياته المنظمة ، وسيطرته الدائمة على ميوله . أما فنانو عصر النهضة فكانوا ذوي بصيرة . فكلمة شجرة ذاتها ، التي ذكرناها آنفاً ، لا تكاد تمسها أذهان سليمة ومجردة حتى تمثلها فوراً بكاملها تمثل هذه المجموعة المستديرة المتحركة التي تكونها الأوراق النضرة ، والزوايا السود التي ترسمها أغصانها على القبة الزرقاء ، وساقها الخشنة المحددة بعروق غليظة ، وأصولها المتوغلة في التربة ، رغم أنف الرياح والعواصف ، وهكذا فان ذهنهم بدلاً من أن يتضاءل حتى يستحيل رقماً وإشارة ، يقدم لهم مشهداً حياً ومكتملاً ، لا يتناسون عناه في تصوره ، ولا يبذلون أي جهد للعودة إليه فيختارون الجوهري منه ولن يعنوا بالأجزاء عناية تبلغ حد التنافس المؤلم . فيستمتعون بصورهم الحية كأنها فلذة نابضة من صميم حياتهم وبدون أن ينتزعوها انتزاعاً ويقذفوها في الهواء باضطراب وتشنج . هم يباشرون التصوير بسائق من الفطرة والاختيار ، مثلهم مثل الحصان الذي يركض أو الطير الذي يطير ، فتصبح الأشكال الملونة لسان الذهن الطبيعي . وعندما يتأمل النظارة هذه الأشكال على خامة أو على جدار ، لا يلبثون أن يتعرفوا إليها ، ذلك لأنهم رأوها في نفوسهم ، ولا ينظرون إليها ، كما اعتادوا أن ينظروا شيئاً غريباً ، أبرزه على المسرح بأساليب مصطنعة ، تضافر التدريب وجهد الارادة ونهج في انبثق من احدى نفثات الفنية . إنها مألوفة لديهم ، حتى انهم كثيراً ما يدخلونها في حياتهم

الخاصة وحفلاتهم العامة ، ويختالون بها، وينشئون منها صوراً حية إلى جانب الصور الملونة .

ولنراقب الآن الثوب : ما أعظم الفرق بين ثيابنا ، من سراويل وردنجوت وكسائنا الأسود الحزن ، وأقبيتهم القضفاضية المزخرفة ودواريعهم المدبجة ، وأطواقهم ذات التخاريم وخناجرهم ، وسيوفهم الفولاذية المرصعة والموشاة بالنقوش، وثيابهم المطرزة المحلاة بالذهب وبجواهراتهم ، وقلانسهم التي يزينها الريش . ان الأبهة في جميع هذه المظاهر ، كانت تتألق على ثياب الأشراف ، بينما لا يستعملها أحد اليوم إلا النساء . ولنلاحظ أيضاً الحفلات الفاتنة الجديرة بالتصوير التي كانت تقام في كافة المدن والمساخر ومواكب الفرسان ، التي كان يسر بها الشعب والأمراء . ففي عام ١٤٧١ جاء دوق ميلانو لزيارة فلورنسا ، يصحبه خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ، وخمسمائة من الرجالة ، وخمسين وصيفاً جاؤوا على أقدامهم يرتدون الحرير والمخمل ، وألفين من الاشراف والخدم ، وخمسمائة زوج من الكلاب وعدد لا يحصى من البزاة . وقد بلغت نفقات هذه الرحلة نحواً من مائتي ألف دوقة ذهباً (نحو ٢٠٠٠٠٠٠ فرنك) . وقد أقام أحد الكرادلة حفلة تكريماً لدوقة « فيرارا » بلغت نفقاتها ٢٠٠٠٠ دوقة . وعلى أثرها قام برحلة في إيطاليا بموكب عظيم فخم ، فظنه الناس البابا أخاه ، وتخيل لوران ومديتشي مهرجاناً يمثل انتصار كاميل . فتوافد عدد كبير من الكرادلة كي يشهدوها وطلب لوران من البابا فيلاً ، فأرسل اليه عوضاً عن الفيل غزلين وفهداً وبعث يقول انه يأسف لأن مقامه السامي يحول دون مجيئه لحضور هذا الاحتفال العظيم . — ودخلت الدوقة « لوكريس بورجيا » مدينة روما تصحبها مئتي سيدة ، ارتدين أفخم الملبوس ، وامتطين الخيول ، ويصحب كل سيدة شريف . أن جلالة المنظر والثياب وظهور السادة والأمراء كل هذه الأمور توحي الى الناظرين فكرة عرض رائع لممثلين حقيقيين . ومنذ أن نقرأ الروايات التاريخية والمذكرات نستنتج أن الطليان يريدون أن يجعلوا الحياة عيداً جميلاً وكل ما عدا ذلك من الشؤون غرور في عرفهم . إنهم لا يتوخون إلا اللذة ، اللذة النبيلة العظيمة ، سواء أتت عن طريق الفكر أو الحواس أو النظر . ومن المؤكد انه ليس لديهم عمل ما يمارسونه : إنهم يجهلون مشاكلنا السياسية والانسانية ، ولا توجد المجالس النيابية في بلادهم ولا الأحزاب ولا الصحف الكبيرة . فالرجال البارزون أو الأثرياء لا يحيط بهم جمهور يهوي الجدل والاحتجاج ، ولا رأي عام يجب استشارته ، ولا مناقشات جافة عقيمة يضطرون لدعمها ، ولا احصاءات ليقوموا بها ، ولا مباحثات خلقية أو اجتماعية ليتأهبوا لها . فايطاليا يحكمها عدد من الطغاة اغتصبوا الحكم بالقوة ويحافظون عليه بالقوة . وفي أوقات فراغهم يستقدمون البناة المهرة والرسامين كالتصوير . ويشجع الأغنياء والأمراء على

منازلهم ، فيحلمون بالمهر ويتسربون الحفلات ، ويقتنون التماثيل والصور ، والثياب الجميلة ، ويلحقون أمناء بالأمير لكي يتسقطوا الأخبار ويحذروا وشايات الناس والفتك .

ولا تظنّن أن الأفكار الدينية تقلقهم أو تثقل عليهم أو يهمهم أمرها .

فان أصدقاء لوران دمديتشي أو اسكندر السادس لا يحلمون مطلقاً بتكوين البعثات ، ووضع الخطط لهداية الوثنيين ، ولا يفكرون في التبرعات التي تنفق في سبيل تعليم وتهذيب الشعب . لأن الناس في ايطاليا لم يكونوا على شيء من الحمية ، ولم يكن أضعف من الحمية في نفوسهم . ولما جاء « لوثيروس Luther الى روما ، وهو مفعم الروح بالتردد والايمان ، ازداد تفككه وصرّح فور عودته : « بأن الايطاليين أكفر الخلق ، يسخرون من الديانة الحقيقية ، ويهزؤون بنا ، نحن المسيحيين، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الكتاب المقدس . . وكلما عنّ لهم أن يذهبوا الى الكنيسة ، يرددون هذه العبارة : « لنذهب ممتثلين للضلال العمي » — ويقولون أيضاً : « لو اضطررنا إلى الاعتقاد التام بكلمة الله ، لأصبحنا أحمق الناس ولم يمض في استطاعتنا أن نجد برهة ننفقها في الاستمتاع . ينبغي أن يكون الانسان طلق المحيا ، وان لا يعتقد بكل ما قيل » . حقيقة أن الشعب وثني بجملته ، والأشخاص الذين أحسنت تربيتهم أصبحوا كفرة بتأثير التربية . ويقول لوثيروس متمضاً : « ان الايطاليين بين أمرين : أما انهم شهوانيون ، أو ذوو اعتقادات باطلة . فالشعب يخشى القديسين « أنطونيوس وسباستيان أكثر مما يخشى المسيح ، خوفاً من الجراح التي يسببانها له . » « ولهذا السبب ، إذا أريد ردع الايطاليين عن التبول في مكان ما ، ترسم هناك صورة » « القديس انطونيوس مشتعلاً رمحه الناري . انهم يحبون حياة مشحونة بالخرافات دون » « أن يعرفوا كلمة الله ، ولا يعتقدون بقيام الموتى ولا بالحياة الخالدة ولا يأبهون الا للجراح » الزمنية » وأن عدداً كبيراً من الفلاسفة ينكرون سرّاً وجهراً ، أو ما يقرب من الجهر ، الالهام وخلود النفس ، وينفرون جميعاً من التصوف المسيحي ومبدأ اذلال الجسد . وشنّ الشعراء هجوماً عنيفاً على الرهبان لا عهد لهم به ، وسددوا الى العقائد تلميحات لا يزعها وازع . ونظم « بولسي » قصيدة ساخرة مضحكة توّج كل مقطع منها بنشيد أحد الشمامسة وعبارة من نصوص القداس . ولكي يبرهن عن حلولية الروح في الجسم ، لم يجد بدّاً من مقارنتها بالمربيات التي يحشى بها الخبز الأبيض . وما عسى أن يكون مصيرها في العالم الآخر؟ « يعتقد بعض العوام انهم سيجدون هناك عصافير وطيوراً أخرى ، وأسرّة فاخرة ، ولهذا السبب تراهم يشتهون أعقاب الرهبان . لكن يا صديقي العزيز : عندما نهبط وادي الظلام ، سوف لا نسمع من « يلشد هلويا » .

إزاء هذه البهيمية وهذا الالحاد ، طفق وعاظ ذلك العصر مثل « برونو وسافونارولا » Bruno-Savonarola يرعدون بكل قوام . وكان سافونارولا نفسه يقول لأهالي فلورنسا الذين ذهب ليهديهم هداية تدوم ثلاث أو أربع سنوات : إن حياتكم مماثلة لحياة الخنازير إذ تنقضي كلها في الفراش والمنازعات والنهو والمؤبقات والفجور » لنحذف من هذا القول ما يجب أن يطرح ، لأن الواعظ أو المهذب كثيراً ما يلجأ الى المبالغة والتهويل لكي يحدث تأثيراً . على أننا مهما حذفنا ، سوف يبقى دائماً شيء يستحق الذكر . ونستنتج من قراءة سيرة الأشراف في ذلك العصر ، ومن الملاهي الماجنة الخثارة التي انغمس فيها حكام ميلانو وفيرارا والبهيمية الرقيقة والاباحية الصريحة عند آل مديتشي في فلورنسا ، أن الناس لم يألوا جهداً في البحث عن مختلف اللذات . فآل مديتشي كانوا صيارفة ، ثم ما عتموا أن أصبحوا ، بفضل قليل من القوة وكثير من الدهاء ، قضاة المدينة وسادتها الحقيقيين ، وجمعوا حولهم عصبة من الشعراء والمصورين والنحاتين والعلماء فزينت قصورهم برسوم تمثل الصيد والحب في العهود الوثنية ، وكانوا يؤثرون الصور العارية من ريشة دلتو Delto وبولايولو Pollaiolo ويرغبون محاسن ومزايا الوثنية بشيء من الشهوة البهيمية . ولهذا السبب كانوا يتجاوزون عن سيئات مصوريهم ويغضون الطرف عن شذوذهم . ولما اختطف فرافيليبو ليبي راهبة جعل أهلها يشكون ، أما آل مديتشي فقد أخذوا يضحكون . ويروي فليبو ، الذي كان يعمل عندهم ، إنه كان شديد الولع بعشيقاته وكان يتخذ من شراشف سريره حبلاً ويتدلى من النافذة كلما أغلقوا عليه لينجز عملاً . وأخيراً قال أحدهم : « ليترك له الباب مفتوحاً . إن الرجال الموهوبين جوهر سماوي وليسوا دواباً . لا يجب أن يسجنوا ولا أن يضيق عليهم.

وكانت الحالة في روما أسوأ ، وسوف لا أقول شيئاً عن ملاهي أسكندر السادس (بورجيا) . ومن شاء الاطلاع عليها فليقرأها في مفكرة كاهن معبده الخاص ، لأنه ما من لغة تستطيع أن تصف الرقص الصاخب المتهتك . أما ليون العاشر فكان رجلاً حسن الذوق يستهويه جمال اللغة اللاتينية ويطرب للهجاء المتكرر . لكنه كان لا يتعفف مطلقاً عن اللذة المخالفة للحشمة والنكتة الجسدية الصريحة . وكان يلتف حوله زمرة من الشعراء والمغنين والطفيليين يحيون حياة حظها من الفضيلة قليل ، وأحاديثهم على جانب عظيم من الصراحة . وطلب الكردينال « بيبينا Bibiena » أن تمثل أمامه كوميديا بعنوان « كالاندرا » لا يجرؤ أحد أن يمثلها في الوقت الحاضر على مسرح من المسارح . وخطر له يوماً أن يعبث فقدم الى ندمائه طعاماً صنع على شكل قرود وغربان ، واتخذ مهرجاً له راهباً صعلوكاً شرهاً يدعى

« ماريانو » يزدرد دفعة واحدة حمامة محشوة أو مشوية ، ويقال انه يستطيع أن يبتلع عشرين فروجاً وأربعين بيضة » . وكان يفرح بالنكات الفظة الجافية والتصورات الخليعة المضحكة ، وككل إنسان كان غزير الناحية الحيوانية شديد الحيا . وكان من هواة الصيد يخرج لاصطياد الوعل والخنزير في الغابات ، محتذياً جزمة يزينها مهماز . ولا تمت الحفلات التي يقيمها الى الدين بسبب أكثر مما تمت إليه عاداته . وقد وصف شاهد عيان، هو ناموس دوق فيرارا ، أحد أيامه . ومن التباين بين ملاذه وملاذنا ، يتبين لنا أن سلطان السياسة والمجاملة قد عظم ، وأن الخيال المرهف قد أخضع العقل الصرف ، وأن مسافة شاسعة تفصل بيننا وبين تلك الأزمان التي كانت تتجاذبها المسيحية والوثنية ، ووسمتها الشهوة بطابعها ، لكنها رغم ذلك كله جديرة بالتصوير ، لأن الغلبة لم تتم للروح على الجسد .

« ذهبت الى الكوميديا مساء الأحد ، فأدخلني صاحب السيادة الكردينال راهوني »
« الغرفة التي يوجد فيها الحبر الأعظم وكرادلة الشبان لمجزيلو الاحترام . وكان قداسته »
« يسير ذهاباً وإياباً ، يأذن بالدخول لفلان وفلان من الناس الذين تروق له صفاتهم . ولما »
« بلغ الحضور العدد الذي عينه ، انتقلوا الى المكان الخاص بالكوميديا . ووقف الأب »
« الأقدس قرب الباب يسمح بالدخول لمن يقع منه موقعاً حسناً ويهب البركة دون أن يحدث »
« ضوضاء أبداً . ويشاهد الداخل المسرح وقد جعل في جهة ، وفي الجهة المقابلة رحبة »
« يرقى اليها درجة درجة، أقيم فوقها مقعد للحبر الأعظم . وبعد أن دخل عامة الناس ، جلس »
« على كرسيه الذي يعلو خمس درجات عن الأرض يحيط به الكرادلة والسفراء حسب رتبتهم »
« وبعد أن استقبل الجمهور بالمزامير ، وكان عدده لا يقل عن ألفي نسمة ، أنزل الستار وقد »
« رسم على جانبيه صورة « ماريانو » مع كثير من الشياطين الذين يمرحون معه . وظهر في »
« وسط الستار منظور ماوي كتب عليه : « اليكم مساذل الأخ ماريانو » ثم صدحت الموسيقى »
« فتناول البابا نظارتيه وبدأ يتأمل المسرح ، وهو من صنع رافائيل ، الذي كان يبدو جميلاً »
« جداً . وكان قداسته ينظر معجباً إلى صورة السماء التي مثلت بمنتهى الجودة . وكانت »
« الشمعدانات مكونة من أحرف ، وعلى كل حرف ترتكز خمسة مشاعل تعني ليون العاشر »
« الحبر الأعظم » . ثم ظهر على المسرح سفير البابا وألقى بياناً قرئ انتقد فيه عنوان »
« الكوميديا ، وما زال كذلك حتى أخذ البابا يضحك وشاركه في ذلك النظارة . وقد »
« اتصل بي أن الفرنسيين اغتاظوا من موضوع الرواية . ثم مثلت الكوميديا فأجاد الممثلون »
« وتخللت الفصول أنغام المزامير والصور والمزاهر والعيدان والأرغن الصغير بأصواته »
« المتنوعة ، وهو تذكار مهدى قدمه للبابا صاحب السيادة الطائر الصيت . وفي الوقت نفسه »

« كان يتصاعد غناء وصوت ناي أحدث سروراً عظيماً . وفي رأيي ان فرقة الغناء لم تصب »
« نجاحاً أعظم مما أصابت المعازف . وفي فترة الاستراحة الأخيرة مثلت « المغربية »
« la Mauresque التي ترمز الى أسطورة جورجون ، وقد كان النجاح حليفها ، لكن هناك »
« بين هذا التمثيل والتمثيل المكتمل الذي جرى في قصر صيادتك . وعند انتهاء « الحفلة » »
« التي ختمت كما وصفت ، بدأ الحاضرون ينصرفون ، فاشتد زحام « الجمهور » وحاولت »
« الخروج على عجل ، فدفعتني المقادير في شق مقعد صغير وكسرت ساقي . وقد أصابت أحدهم »
« صدمة عنيفة من اسباني ، ولما كان الأول يسدد السكات الثاني ، أتيحت لي فرصة للنجاة »
« حقيقة ان ساقي أصيبت بأذى عظيم ، لكنني وجدت عزاء بالبركة العظيمة التي منحنيها »
« الأب الأقدس . وبالبشاشة التي تفضل وتلقاني بها » .

« وفي اليوم السابق لهذه الحفلة الساهرة جرى سباق خيول ، فشوهدت قطعة من الخيول اسبانية الأصل يرأسها صاحب السيادة كوردر ، ويرتدي الفرسان الزي المغربي المتنوع ، وتليها زمرة أخرى بالزي الأسباني ، يلبس أفرادها الأطلس الاسكندراني ؛ المبطن بالحرير الملون ، والبرنس . وقد منح البابا كل فارس ٤٥ دوقة مكافأة لهم . وحقيقة كانت الخاصية موضع اعجاب الجميع ، فكان أفرادها يتقلدون الأسلحة وينفخون في الأبواق التي لا يختلف لونها عن لون الحرير . وعندما بلغوا الساحة جرت الخيول بهم نحو القصر مشي حيث كان البابا يرقبهم من الكوى . وفي ختام العدو وقفت الأولى شطر القديس بطرس والثانية وقفت في الجهة المقابلة . وكم كان المنظر جميلاً عندما انقض الفريقان على بعضهما يتحاميان . وقد شوهد في الميدان أحصنة جيلة وأفراس لا تزال سراناً . وفي اليوم التالي عبدت صراع الثيران . وفي المساء مثلت كوميديا من وضع أحد الرهبان . وقد بلغني أنها لم تحرز اعجاباً عظيماً ، لذلك عدل البابا عن مشاهدة الرقصة المغربية وأمر أن يلف الراهب بشرشف ويرمح في الفضاء ثم يطرح بعنف على أرض المسرح . وبعدئذ أمر بقطع خدمتيه (رباط الساق) واخراج عقبيه . لكن الراهب طلق بعضض صيابته . ثم اركب حصاناً ونال ما لا يحصى من اللطمات على عجزه . وأخبرت أنه لا يزال ملازماً الفراش ، وصحته لا تبعث على الطمأنينة رغم المحاجم الكثيرة التي ألصقت على مؤخره . ويقال ان البابا يبغي أن يلقن الرهبان الآخرين درساً كي لا يفكروا أن يعرضوا برهبانياتهم . وجاء اليوم دور السباق بالخاتم أمام باب القصر حيث كان البابا يتفرج من النوافذ . أما الجوائز فقد كانت مسجلة على كؤوس . ثم بدأ بعدئذ سباق الجواميس ، كان منظر هذه الحيوانات القبيحة ،

وهي تركض ركضاً ، فكانت تارةً تتقدم وطوراً تتأخر ، ولم تستطع الوصول الى الهدف أو الاقتراب منه الا بعد مرور وقت طويل ، لأنها كانت تخطو خطوة الى الامام وترجع أربعاً ، وأقسم أن هذا السباق كان فكاهة عظيمة ثم غادرت المكان قاصداً بعض وقت بزيارة قداسته فالتقيت عنده أحد الأساقفة . وكانت المساخر والشؤون اثارة محور الحديث » .

« عن روما ٨ مارس ١٥١٨ الساعة الرابعة ليلاً .
خادم سيادتك المطيع الشهرة : الفونسو بولوزو .

هذه هي أفراح الكارنافال تجري في بلاط يجب أن يكون موئل الوقار والحشمة في ايطاليا . وهذا ذلك ، فانه يجري سباق لرجال المرأة على غرار الالعاب الاغريقية القديمة .

ان شعباً توفر له خيال توجّه بكليته صوب الاشكال الجسدية ، ومدنية تعتبر السرور هدفاً للحياة الانسانية ، والعتاق تام في المشاكل السياسية ، وحلبة المصانع والاهتمام بالشؤون الخلقية التي تربط العقول بالمنافع المادية والافكار المجردة : ان شعباً وهب الفطرة الفنية ونال نصيباً عظيماً من الثقافة ، ليس يستغرب أن يتذوق ، ويبتكر ويبلغ الكمال بالفن الذي يمثل الاشكال الحسية . ويعتبر عصر النهضة فذة فريدة تصل القرون الوسطى بالعصر الحاضر ، ووسيطاً بين الثقافة الناقصة والثقافة العظمى ، وسيادة المراكز المجردة والافكار الناضجة . في هذا العصر لم يعد الانسان حيواناً وحشياً مفترساً لا يحسن إلا ترويض أعضائه ، ولم يصبح عقلاً صرفاً يعيش في مكتب أو بهو ، ولا يحسن الا ترويض عقله ولسانه . إنه يجمع بين الطبيعتين : في رأسه أحلام هديلة عنيفة متصلة كالهمجي ، وفي صدره رغبات حادة وناعمة كالرجل المتحضر . إنه يشبه الاول في تفكيره القائم على التصورات ويشبه الثاني في حب التلبيق ، هو كالاول في نشدانه اللذة الحسية ، وكالثاني : إذ ينشد ما وراء اللذة الفجة في نفسه تتعانق الشهوات والصفاء ، إنه يهتم بظواهر الاشياء ، لكنه يرغب أن تكون هذه الظواهر كاملة ، وليس للاشكال الجميلة التي يتأملها في آثار كبار فنانيه إلا أن تخلي سبيل الصور المبهمة التي تعمر رأسه ، وتسد المراكز الصم التي جبل عليها قلبه .

الفصل الخامس

الشروط الثانوية

لماذا اتخذت هذه القريحة الفنية المطبوعة الجسم الانساني موضوعاً رئيسياً لها ؟ وما هي الاختبارات والعادات والميول التي هيأت الناس وأعدتهم للاهتمام بالعضلات ؟ لماذا طرفت أعينهم في ميدان الفن الفسيح فلم تقع الا على الوجوه السليمة للمتعاقبة النشيطة التي لم تهتد اليها الأجيال التالية ، أو انها لم ترها إلا متعمدة تحدوها السنة ؟

هذا ما بقي علينا أن نعرفه ، ولذلك فانني بعد أن فرغت من شرح الحالة الفكرية ، سأحاول أن أعرف نوع الطباع .

تنطوي هذه العبارة «الحالة الفكرية» على نوع الأفكار التي توجد في رأس بشري وانسجامها وخصائصها . وهي بمثابة الأثاث في الرأس . لكن أثاث الرأس ، كأثاث القصر يتبدل ببذل قليل من العناء . فيمكننا ، دون أن نمس بناء القصر ، أن نستبدل طنافسه وأسرته وتماثيله النحاسية وسجاجيده . وكذلك يمكننا أن نلقح النفس بأفكار جديدة دون أن نمس الهيكل النفسي ، كأن نبدل في صيرورة الانسان أو نلقنه ضرباً من التربية . وثمة اختلاف بين كونه جاهلاً أو عالماً ، سوقة أو نبيلاً . إذاً يوجد في الانسان عنصر يفوق الافكار أهمية هو هيكله الذاتي ، أعني بذلك طابعه ، وبعبارات أخرى جماع غرائزه الطبيعية ، وميوله البدائية ، وعظمة حسه ومبلغ حماسته، وبالجملة قوة دوافعه الباطنية والتحكم بها . ولكي أتمكن من اجتلاء هذه البنية العميقة الخاصة بالنفوس الايطالية ، سأتحدث عن الظروف والعادات والحاجات التي كونت هذه البنية . ويقيني انها تصبح أدنى الى الفهم إذا أوضحت ما لو عرفت .

أول ما يلاحظ في ايطاليا في ذلك العصر ، هو فقدان السلام الموطد الدائم ، والعدل الدقيق ، والشرطة الحارسة التي نعهدها عندنا . ويتعذر علينا أن نتمثل هذا الافراط في القلق والفوضى والأعمال العنيفة ، لأننا انتقلنا منذ زمن طويل جداً الى حالة تناقضها

تماماً . فعندنا عدد من الدرك والشرط نرى انهم يزعجوننا أكثر مما ينفعوننا . في أيامنا هذه عندما يتجمهر خمسة عشر شخصاً في الشارع حول كلب هيضت ساقه ، يتقدم منهم شخص طويل الشاربين ويخاطبهم قائلاً : « أيها السادة : تفرقوا ، لأن التجمهر ممنوع » فيبدو لنا أن السلطة تجاوزت الحد ، فنغتاظ ، ولا يخطر لنا ببال أن نميز أن هؤلاء الرجال ذوو الشاربين يقيمون للفقير والغني أن يغادر بيته عند منتصف الليل ، وهو أعزل ليتنزه في الشوارع الخاوية منفرداً . انزل الشرط ، فكراً ، ولنتصور عالماً أصبحت فيه هذه القوة (البوليس) عاجزة أو مستهترة ، كما هي الحال في اوستراليا وأمريكا ، في المناطق التي تكثر فيها مناجم الذهب ، حيث يسارع اليها المنقبون عن الذهب جماعات ويحيون بالمصادفة قبل أن ينشئوا دولة منظمة . هنالك اذا ما أحس أحدهم خطراً ، أو أصابته لطمة ، أو وجهت اليه مسبة فسرعان ما يتناول مسدسه ويطلق النار على المنافس أو الخصم الذي لا يقف مكتوفاً بل يتسرع الى الاجابة بالمثل ، وكثيراً ما يساهم الجيران في النزاع . وينبغي أن يظل الانسان حذراً في كل لحظة كي يحمي ملكه أو يصون حياته ، لأن الخطر قريب ، يحدق بالانسان من كل صوب ويبرز بغتة وبصورة وحشية .

هكذا كانت الحال في ايطاليا ، على وجه التقريب ، حوالي عام ١٥٠٠ . ولم يكن لدى الايطاليين ما يماثل هذه الحكومة العظيمة التي اكتملت عندنا منذ أربعة قرون ، ونرى أن من أبسط واجباتها المحافظة ، ليس فقط على حياة الانسان ومتاعه ، بل على راحته وطمأنينته . ولم يكن الأمراء الايطاليون سوى طغاة صغار اغتصبوا السلطة كما هو مألوف ، بالفتك ، والسم ، أو بالقوة ، والغدر . فمن الطبيعي أن يكون ديدنهم المحافظة على هذا السلطان لا السهر على طمأنينة المواطنين . فكان على هؤلاء أن يحافظوا على أرواحهم ، وعدا ذلك ، أن يتقاضوا فيما بينهم . ولم يأت بشيء آد من يعمد الى التخلص بسرعة من داء معاند ، أو وقع يصادف في الشارع ، أو شخص تتوسم فيه الخطر والضغينة . والشواهد على ذلك كثيرة : فليس على من يود أن يعرف مبلغ تأصل عادة النزاع العائلي والاعتماد على النفس ، إلا أن يطالع المذكرات التي تعنى بشؤون ذلك العصر .

يقول ستيفانو إنفسورا Stefano d'Infessura : « في العشرين من شهر سبتمبر حصل شغب عظيم في مدينة روما وأغلق جميع التجار مخازنهم . وعاد أولئك الذين كانوا يعملون في حقولهم أو كرومهم بسرعة عظيمة ، وتقلد الجميع السلاح ، المواطنون منهم والغرباء . وسبب ذلك ، ان خبراً ، يكاد يكون يقيناً ، انتشر في المدينة ، مؤداه أن البابا « إنوسان الثالث innocent III قد مات » .

العنف ، ولا أعني أفراد الشعب فقط ، بل إن شخصيات من الطبقة العالية أو من ذوي الثقافة العظيمة كان لا بد لهم ، على ما يظهر ، أن يتحكموا في أهوائهم ويملكوا أنفسهم عندما تلح الشهوة . ويروي جيشا ردان أن حاكم ميلان نائباً عن ملك فرنسا ذبح بيده يوماً بعض « الجزادين في وسط السوق لأنهم اعترضوا بوقاحة استأثرت بها هذه الفئة من الناس » « على جباية الخراج الذي لم يعفوا منه » .

وقد اعتدنا في عصرنا الحاضر أن نرى في الفنانين مواطنين عاديين يغشون المجتمعات ويحسنون لبس الرداء الأسود والربطة البيضاء في الحفلات الساهرة . أما في المذكرات التي خلفها لنا « سليني » فانهم رجال فتك ، يسرعون الى القتل كالجنود الافاقين . ففي أحد الايام عزم تلاميذ رافائيل على قتل روسو لأنه كان رجلاً سليطاً وطعن في رافائيل بالقول . ولما أنبئ روسو بذلك فر وأيه على مغادرة روما ، ولم يكن له عن السفر معدى بعد ما بلغه انهم يتوعدونه بالقتل لأن الملة التافهة تودي بحياة إنسان . ويقول سليني عن « فازاري » أنه اعتاد أن يترك أظافره تنمو . وبينما كان يرقد يوماً إلى جانب تلميذه « مانو » سحج له فخذه بأظافره ظنا منه أنه يحك جسمه . فهب « مانو » مذعوراً وصمم على قتل « فازاري » . ان السبب كان طفيفاً ، لكن الانسان كان ذلك العصر شديد الحدة ، أعتاد الضرب ، فسرعان ما تحمر عيناه ويهجم . وكما أن الثور ينطح أولاً بقرنيه ، كذلك الرجل يطعن أولاً بخنجره وتتصف الحوادث التي تقع يومياً في روما أو في الضواحي بالقسوة . ولا تختلف أساليب العقوبات عن الأساليب التي كانت تستعملها دول المشرق المطلقة . ولا يحصى عدد الذين قتلهم سيزار بورجيا ، هذا الشاب الجميل اللطيف ، ابن البابا ، وقد اشتهر بالظرف والدهاء في السياسة ، وهو من هواة الحفلات والمحادثات الرقيقة ذو قامة دقيقة يتدثر بدراعة من المخمل الأسود له يدان بلغتا الكمال ، وهو ذو نظر هادئ يعهد في السيد العظيم . لكنه يعرف كيف يحمل الناس على احترامه ، إذ إنه يلوذ بسيفه أو عدته كما حزبته الامور .

وروى حاجب البابا فقال : « في الأحد الثاني ، عيب دوق فالنتينوا (ابن البابا) رجل « مقنع في بورغو (كورسكا) . ولما علم الدوق بالأمر قبض على الرجل ، وأمر فقطعت يده ، » « ومقدمة لسانه ، ثم علقت بخنصر اليد المقطوعة » . وهو ينوي ولا شك أن يجعله مثلاً للآخرين وفي أحد الايام « علـق خدامه فيغين وثماني عجائز بأذرعهم وأشعلوا النار تحت أقدامهم كي يرشدوهم الى الكنز ، لكن هؤلاء استنكروا الالم أو تجاهلوه ، فماتوا هذه الميتة الشنيعة » .

وفي يوم آخر استحضر الى دار القصر أشخاصاً حكم عليهم ، ثم ظهر في الناس : يرتدي

ان رباط الجمعية الواهي قد انبتّ ، وعاد الناس الى طور الهمجية . أخذ كل فرد يتحين الفرصة الملائمة ليفتك بأعدائه ويتخلص منهم . وفي الزمن العادي ، لم تكن المسالك الى وقوع الحوادث أقل عنفاً واصطباغاً بالدم. فالحروب العائلية بين أسرتي كولونا وأورسين كانت تجري حول روما . وكان لدى هؤلاء السادة رجال مسلحون وفلاحون يدعونهم للمساعدة . فتشرع كل عصابة بنهب أراضي العدو . ولا تكاد تعقد هدنة . حتى يبادر أحد الطرفين الى نقضها . ويبعث كل زعيم ، وهو على قدم الاستعداد ، يخبر البابا على أن خصمه كان المعتدي .

« وتعددت حوادث الاغتيال في قلب المدينة ، منها ما يقع ليلاً ومنها ما يحدث في النهار ، حتى أنه كان يندر أن يمر يوم دون أن يقتل فيه أحد ... ففي اليوم الثالث من شهر سبتمبر هاجم أحدهم ، وكان يدعى سالفادور ، عدوه ، رغم أنهما كانا متعاهدين لقاء كفالة تبلغ ٥٠٠ دوقاً ، ومعنى ذلك أن الاثنين وضعا بالاتفاق ٥٠٠ دوقاً رهينة ، ومن تحدثه نفسه بنقض العهد يخسر المبلغ . وكانت ضمانة الايمان المثبت بقسم أمراً مألوفاً ، ولم تكن هذا وسيلة أجدى لحفظ السلام زمناً ما . وعثر في سجل النفقات الخاص بلّيني النبذة التالية مكتوبة بخط يده . «أعلن أني في هذا اليوم الواقع في ٢٦ من اكتوبر سنة ١٥٥٦ قد خرجت من السجن وعقدت مع عدوي هدنة لمدة سنة ودفع كل منا كفالة مقدارها ٣٠٠ دوقاً » لكن الضمانة المالية تظل ضعيفة واهية ازاء شراسة المزاج ووحشية العادات ، ولهذا لم يقوَ سالفادور أن يحجم عن مهاجمة عدوه . « ضربه مرتين بالسيف فجرحه ، ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه » .

لا مناص هنا من تدخل القضاة ، لأنه يولغ في ازدرائهم . ولا يقف الشعب متفرجاً ، بل ينغمس في الأمر ، كما يحدث على وجه التقريب اليوم في ولاية كاليفورنيا عند تطبيق شرعة لينش Lynch . فلما تتكاثر حوادث القتل في الاماكن التي أهملت حديثاً بالبناء ، يتنادى التجار والأشخاص المحترمون وذوو المكانة في المدينة ، ويلحق بهم كل ذي ارادة حسنة ، ويقصدون السجن ويخرجون من فيه من المجرمين ويقررون شنقهم على أثر جلسة واحدة . وهكذا ، فان البابا أرسل في اليوم الرابع وكيل حاجبه مع حرس المحافظين وكل أفراد الشعب كي يهدموا بيت سالفادور ، فهدموه . وفي اليوم الرابع من ذات الشهر ، شُنق جيروم أخو سالفادور الآنف الذكر . وسبق ذلك على ما يرجح أنهم لم يتمكنوا من القبض على سالفادور نفسه . ففي وسط هذه الفوضى الدامية الصاخبة الشعبية ، أصبح كل فرد مسؤولاً عن ذويه . وهناك خمسون حادثة مماثلة ، ذلك لأن الناس في ذلك الزمن قد ألفوا أعمال

أجمل ما عنده من الشباب. ورمام بالشاب على مرأى من جمهور غفير من الناس . » وقتل رجلاً لاذ برداء البابا . وكان أسيراً عنده ، فتطاير الدم رذاذاً وأصاب وجه البابا ». وكثيراً ما تذابح أفراد هذه العائلة . ففي أحد الأيام جرد سيفه وهاجم صهره وجرحه . عندئذ أسرع البابا لنجدة الجريح . لكن الدوق التفت وقال : « سينجز وقت العشاء ما لم ينجز عند الغداء » وفي السابع عشر من شهر أغسطس دخل غرفة الشاب الذي نهض من النوم وأخرج زوجته وأخته ، ثم نادى ثلاثة سفاكين « وأمرهم أن يخنقوا الشاب المذكور » . وعلاوة على ذلك ، فانه قتل أخاه وطرح جسمه في النهر . وبعد أن بحثوا عنه كثيراً دون أن يقفوا على أثر ، تبين لهم أن صياداً كان قرب الشاطىء أثناء ارتكاب الجريمة . ولما سئل : لماذا لم يخبر حاكم المدينة بالأمر ، أجاب : انه لم يظن ان هناك ما يوجب ذلك ، لأنه شاهد خلال حياته أكثر من مائة جثة تطرح في نفس المكان وفي ليالٍ مختلفة دون أن يهتم بها أحد » .

مما لا شك فيه أن أسرة « بورجيا » تمتاز ، على ما يظهر ، بميل وموهبة فريدين يتجليان في السم والسفك . على أننا لا نعدم في الدويلات الايطالية عدداً من الشخصيات ، أمراء وأميرات ، هم من أشباه آل بورجيا . فأمير « فاءزا » Faenza أوغر صدر زوجته بسبب سلوكه ، فأكنت أربعة سفاكين تحت سريره ، ولما عاد في إحدى الليالي هجموا عليه فدافع عن نفسه بعزم . عندئذ هبت زوجه من فراشها وتناولت مدية مربوطة بأحد قوائم السرير ودنت من بعلها وطعنته في ظهره . أزاء هذا الحادث حرمتها الكنيسة فجاء أبوها الى لوران دمديتشي ، وله عند البابا أواخ وأسباب رعي ، وطلب وساطته لديه كي تحل من التأديب الكنائسي متعللاً بأسباب من جملتها انه ينوي أن « يتدارك لها زوجاً آخر » . وذبح في ميلانو الدوق جاليزو بيد ثلاثة شبان استاذوا قراءة فلوطرخس Plutarque فقتل أحدهم اثناء الفعلة وطرحت جثته للخنانيص ، وصرح الآخران ، قبل أن يعدما ، انهما ركبا الذنب بهجة ، وأن الدوق لم يكن فاسقاً فقط أفسد النساء ، بل كان يفضحهن . ولم يكن يذبح الرجال فقط ، بل كان « يقسّط عليهم العذاب الى أن يموتوا » . وفي روما نجا البابا من الذبح بيد كرادلته . لكنهم عادوا ورهوا جراحه فسمموه وهو يعالج ناسوره . فقُتل الكردينال بتروكي أكبر المحرضين على ذلك . واذا تدبرنا أحوال عائلة « مالا تستا » في « ريميني » ، أو أسرة « إسطه » في « فيرّارا » وجدنا فيهما عادات مماثلة ومتوارثة في السم وسفك الدماء . واذا نظرنا أخيراً الى مدينة « كفلورنسا » ، تفتخر غيرها بحسن السيرة ، ويحكمها أحد أفراد أسرة مديتشي ، يؤثر عنه الذكاء والكرم والشرف ، لتبين لنا انها كانت

مسرحاً لحوادث أشد وحشية من كل ما ذكرت. فقد اغتاظ آل بازّي لأنهم رأوا آل مديتشي يقبضون على زمام السلطة، فتواطؤوا مع أسقف البيزا على قتل يوليانوس ولوران دي مديتشي ولم يكن البابا سيكست الرابع غريباً عن هذه المؤامرة. واختاروا لهذا الحادث اليوم الذي يقام فيه القداس في « سانتا ريباراتا » Santa Reparata على أن يشرع بالاغتيال حين تقديم الذبيحة. فطعن أحد المتآمرين يوليانوس دمديتشي. فجثم فرانسيسكو ده بازي على الجثة وتلطخ بلحمه ودمه وجرح بفخذه لشدة غضبه. ثم قتل شخص آخر تربطه الصداقة بآل مديتشي. أما لوران فقد جرح، لكنه كان شجاعاً: وقد تسنى له أن يستل سيفه ويلف جبته حول ذراعه ويجعل منها مجناً، وأحدق به أصدقاؤه فصانوه بسيوفهم وأجسامهم الى أن دخل مخزن الألبسة المقدسة واتخذه ملجأ. أما بقية المتآمرين، ويبلغ عددهم الثلاثين، وعلى رأسهم الأسقف، فقد داهموا قصر الحكومة ليتسلموا زمام السلطة. لكن الحاكم، عند تسلمه مهام الوظيفة قد عني بتركيب الأبواب تركيباً غريباً، فاذا أغلقت لا تفتح من الداخل فرأى المتآمرون، إنهم وقعوا في مصيد. أما الشعب فقد تقلد السلاح وجاء من كل صوب وقبض على الأسقف وشنق بثيابه الكهنوتية الى جانب فرانسيسكو ده بازي أعظم المحرضين على المؤامرة. أما الأسقف فقد اعترته نوبة غضب شديدة وهو يلفظ أنفاسه في المشنقة، فتعلق بجسم شريكه وأخذ ينهش لحمه. ثم جيء بما يقارب العشرين شخصاً من أسرة بازي، ومثلهم من أسرة الأسقف وقطعوا ارباً ارباً، وشنق ستون شخصاً بنوافذ القصر. وكلف اندريا دل كاستانيو Andrea del Castagno (١٣٩٠ — ١٤٥٧) أن يصوّر هذه المشنقة العظيمة التي أورثته فيما بعد لقب أندريا المشنوقين. ويروى عن اندريا نفسه أنه سفاك، قتل صديقه ليختلس سرّ التصوير الزيتي.

وسوف لا أنتهي إذا رمت أن أتحدث عن كل أخبار ذلك العصر التي تتسم جميعها بطابع مماثل إلا أني اخترت الحديث التالي، لأن بطل الحادث سيعود قريباً للظهور على المسرح، ولأن الحدث ما كيافيلي: « كان أوليفرتو Oliverotto من فرمو « صغيراً ويتيماً »، فكفله خال له يدعى « جيوفاني فرغلياني. ولما كان الفتى على نصيب من الذكاء الفطري، وكان نشيطاً، قوي الجسم، شجاعاً، لم يلبث أن يرزق من قصير جداً أقرانه في فرقته. ورأى أن من الهوان عليه أن يظل مختلطاً، ضائعاً بين الآخرين، فعزم على احتلال المدينة معتمداً في ذلك على بعض المواطنين في « فرمو » فكتب الى خاله يقول أنه نزح عن وطنه منذ سنوات عديدة، وفي نفسه شوق لرؤيته وزيارة المدينة، ولكي يلقي نظرة سريعة على ميراثه من والديه. وأضاف يقول أنه لم يتكبد المشاق العظيمة الا للحصول على الشرف: ولكي يرى أبناء

وطنه وأنه لم يضع وقته سدًى، وأنه ينوي أن يأتي مصحوباً بمائة فارس، بين أصدقاء وخدم ويرجوه أن يتلطف ويدعو اهالي «فرمو» ليحسنوا استقباله، وهذا الشرف لا ينحصر في شخصه، بل يشمل جيوفاني أيضاً، الذي تعهد أوليفرتو طفلاً. لم يهمل جيوفاني شيئاً من الواجبات المطلوبة منه. فاستقبل بحفاوة من قبل سكان «فرمو» وأسكنه جيوفاني بيته ... قضى أوليفرتو بضعة أيام يعد كل ما يراه لازماً لجرمه، ثم أقام مأدبة عظيمة دعا إليها خاله وكل عيون فرمو. وقبيل الخاتمة، انتقل بالحديث عمداً إلى شؤون هامة تتعلق بعظمة البابا اسكندر وابنه ودسائسهما. عندئذ نهض أوليفرتو فجأة وقال: ان بحث قضايا مماثلة يتطلب خلوة تامة، ثم دخل غرفة فتبعه خاله والآخرون. ولم يكد يتمكن بهم المجلس، حتى برز من أمكنة خفية في هذه الغرفة، جنود ذبحوا جيوفاني ومن معه. وبعد هذه المقتلة امتطى أوليفرتو جواده وطاف المدينة وحاصر الحاكم الأعظم في دار البلدية، ودبّ الرعب في قلوب السكان، فتطوعوا وأقاموا حكومة جعلوه رئيسها تحكم بالموت على كل حشيق عضّ على ناجذيه. ولم تكد تنقضي سنة حتى أصبح مرهوباً من جميع جيرانه ».

وتتواتر الدسائس على هذا الضرب، فتملأ منها حياة سيزار بورجيا، وليس إذعان ولاية الرومان للكردي الرسولي الا خيانات متتابعة وسفك دماء. تلك هي الحالة الاقطاعية على حقيقتها، حملت كل شخص أن يتفرّد عن الناس ويعتمد على نفسه، فيضرج على الغير أو يدافع عن نفسه، ويسترسل في طمعه وفجوره وذحله، دون أن يخشى توسط الحكومة ولا زجر الشريعة.

لكن الفارق العظيم بين ايطاليا في القرن الخامس عشر وأوربا في القرون الوسطى كان في الثقافة العظيمة التي كان يتحلى بها الايطاليون، وقد رأينا فيا مضى من البحث الدلائل الكثيرة على وجود هذه الثقافة الذيئة. ومن غريب التناقض أن تصبح الأساليب أنيقة، والأذواق مهذبة، مرهفة، وتظل الطباع والقلوب، وحشية، فظة. فهؤلاء الاقوام أدباء، عارفون، ظرفاء، مهذبون يغشون الجامع، وفي الوقت نفسه ذوو سلاح، سفاكة، قتلة، يأتون أموراً لا تصدر إلا عن متوحشين، ويظهرون تفهماً تتصف به الاقوام المتمدنة: إنهم ذئاب مجيبة !!

ولنفرض الآن أن ذئباً طفق يفكر في أبناء جنسه، فن المحتمل أنه سوف يسن شرعة القاتل. وهذا ما جرى في إيطاليا: فالفلاسفة صاغوا، قانوناً الحوادث التي شاهدوها وانتهوا الى الاعتقاد أو القول بأن على الانسان، لكي يعيش أو ينجح في هذه الدنيا، أن

يكون ناسكاً . وبعد ما كيافيلّي أعمق هؤلاء المفكرين . وهو رجل عظيم ، شريف ، وطني ، ذو عبقرية متفوقة ، ألف كتاب « الأمير » لكي يبرر ، أو على الأقل ، لكي يجيز الغدر وسفك الدماء . أو بالأحرى ، إنه لا يجيز ولا يبرر . فقد تجاوز السخط وترك الوجدان جانباً . هو يحلل ويشرح على نمط العالم ، العارف بأحوال الناس . ويدلي بحججه ويفندها ، ويرسل الى قضاة فلورنسا مذكرات مفيدة وواقعية ، مكتوبة بأسلوب هادىء رصين ، كما يكتب محضر في عملية جراحية موفقة ، ويعنون بيانه هكذا :

« وصف الطريقة التي سار عليها دوق فالنتينوا ليقتل فيتلّي ، أوليفرتو ، السنيور باغولو والدوق جرافينا أورسيني » :

« أيها السادة الشرفاء : بما أن سيادتكم لم تتلق كل رسائلي التي تشتمل على قسم عظيم خاص بقضية « سينغاليا » ، فاستحسنت أن أكتبها منفصلاً . وأعتقد أن ذلك يسركم نظراً لأهمية الأمر ، وعظيم صيته ، وندرته من كل وجه » .

حرب هؤلاء السادة الدوق ، فوجد نفسه عاجزاً عن مخاصمتهم . فعقد الصلح ووعدهم كثيراً ، ووفاهم شيئاً مما وعد به ، وأجزل العطاء في الكلمات المنمقة ، وأصبح حليفهم ثم اقترح بإيعاز منهم ، عقد مؤتمر لحل قضية عامة . كانت المخاوف تملأ قلوبهم فترددوا كثيراً لكن وعوده كانت مغرية جداً ، وكان يحسن دغدغة آمالهم وأطماعهم ، وبالغ في اظهار اللطف والولاء ، مما حملهم على المجيء ، تصحبهم حقيقة فرق عسكرية ، فأعطوه مقادتهم بحجة التأنق في الضيافة وقادوه إلى قصر في « سينغاليا » كان يقطنه ، فدخلوه راكبين فكان الدوق يستقبلهم ببشاشة . ثم استنزلهم عن خيولهم وزجّهم غرفة سرية ثم ما عتم أن جعلهم سجناء

« امتطى الدوق فوراً حصانه وأمر بنهب أتباع « أوليفرتو واورسيني » . ولكن جنوده أسفوا لأنهم نهبوا أتباع أوليفرتو ، فبدؤوا يعيثون في « سينغاليا » ، ولو لم يقمع الدوق تطاولهم وبذبح الكثيرين منهم لنهبوها بأسرها »

أصبحت السيادة الشاملة قلقة ، وتلعص الصغار والكبار .

« ولما أقبل الليل وهدأ المرج ، خطر للدوق أن يأمر بقتل « فيتلي و « اوليفرتو » ، فساقهما الى مكان وأوعز بخنقهما . كان « فيتلّي » يتوسل الى قاتليه كي يتضرعوا الى البابا ليمنحه غفراناً تاماً عن خطاياه . أما « أوليفرتو » فكان يبكي ، وحمل فيتلي مسؤولية الأضرار التي نزلت بالدوق . لكنهم أبقوا على « باغولو » ودوق جرافينا إلى أن بلغ الدوق ان البابا أدخل في حمايته كلاً من الكردينال أورسيني وأسقف فلورنسا وصاحب السيادة جاكوبو ، عندئذٍ أمر بخنقهم ، وكان ذلك في الثامن عشر من يناير » .

ليست هذه إلا رواية . لكن ماكيافيلي في مناسبة أخرى لايقف عند سرد الحوادث بل يستخرج العبر . وقد ألف كتاباً نصفه حقيقي والنصف الآخر خيالي ، حاذياً في ذلك حذو كزينوفون في كتابه « سيروس » . وهذا الكتاب هو « سيرة » المحارب « كاستروكسيوكاستراكاني (١٢٨٠ — ١٣٢٨) . وقد شاء ماكيافيلي أن يظهره للإيطاليين نموذجاً للأمير الكامل الأوصاف. ويروي عن هذا المحارب انه من اللقطاء ، لكنه ما عتم ان أصبح سيد لوك وبيزا ، وبلغ درجة من القوة حسبت لها فلورنسا أكبر حساب . « وقد أتى أعمالاً كثيرة تصلح أن تتخذ عبراً عظيمة لما فيها من الفضيلة والفلاح . وخلد لنفسه ذكراً حسناً مما جعل أصدقاءه يأسفون عليه أكثر مما أسفوا على أي أمير كان في عصر من العصور » . ومنقصر الكلام على إحدى الأعمال الجيدة التي قام بها هذا البطل المحبوب الجدير بالثناء الخالد .

« ثارت عليه أسرة بوجيبو فأوقف العصاة ستيفانو بوجيبيو ، وهو رجل شيخ وقور ، وعدم بوساطته . فاستسلموا وألقوا السلاح كما شرعوه حقاً . ولما عاد كاستروكسيو ، ذهب ستيفانو لمقابلته ، ولم يفعأ أن يتنصل إليه من الجناية ، ظناً منه ان كاستروكسيو مدين له بقمع الفتنة ، بل سعى لانقاذ الباقين من أهل عشيرته . ورجاه أن يغفر للشبيبة نزقها وأن يتحمل ما ولدت صداقة عتيقة ، وعن عليه بما فعلته هذه العائلة من الصنائع . فأجابه كاستروكسيو بكياسة عظيمة ، قائلاً له إنه يأمل خيراً ، ولا يسعه إلا أن يقر أن فرحه بوقف الفتن أعظم من حنقه عندما أنبيء بإيقاظه . وحث ستيفانو على أن يأتي بهم جميعاً ، قائلاً له ، إنه يقدم الشكر لله للفرصة التي أتيحت له كي يظهر عفوه وكرمه . فأتوا جميعاً ثقة منهم بوفاء كاستروكسيو وستيفانو ، فسجن الجميع ، حتى ستيفانو نفسه ، وحكم عليهم بالموت » .

والبطل الآخر الذي يتحدث ما كيافيلي هو سيزار بورجيا أعظم سفاح وأعظم غدار ظهر في عصره . هو رجل فريد في نوعه ، ينظر الى السلام مثلما كان الموروث والأتروكسيون ينظرون الى الحرب ، أي أنها فترة تعتبر فيها المداهنة والتلفيق والخداع والكيد حقاً وواجباً ومفخرة. وكان يستوحي هذه المبادىء في سيرته مع كل الناس ، وأهل بيته وأخلص الناس إليه . وأراد يوماً أن يضع حداً للاخبار التي يتناقلها الناس عن قساوته . فألقى القبض على عامله « رومان » ، الذي أدى له خدمات عظيمة ، وأخضع له البلاد بأسرها ونشر الطمأنينة . وفي صباح اليوم التالي ، شاهد الناس ، بخارم السرور والرعب ، جثته في الساحة العامة وقد قطع نطعتين والى جانبه سكين دامية . وأذاع الدوق انه قتله عقاباً له على قساوته

العظيمة ، بما حمل الناس على نعته بالسيد الصالح ، العادل ، حامي الشعب . وخلص ما كيافيلّي الى هذا القول :

« يعلم كل امرىء ما ينال الأمير من المديح اذا عَهِدَ الحرمة وعاش عدلاً لا ماكراً . غير أن التجارب في عصرنا برهنت لنا على أن الأمراء الذين أتوا أموراً عظيمة، إنما هم أولئك الذين لم يصونوا العهد إلاّ نادراً ، واستطاعوا بدهائهم ان يتلاعبوا بعقول الناس ، وأخيراً هدموا أولئك الذين يعتمدون على صدقهم . فالسيد الحكيم لا يستطيع أولا يجب عليه أن ينجز وعده اذا أدى ذلك الى ضرره ، او اذا كانت الأسباب التي جرت الى هذا الوعد قد انتفت . ومع ذلك ، فلم يعدم أمير يوماً حجة يتعلل بها كي يزخرف حنثه . ولكن من الضروري أن يلون الأعذار التي يتعلل بها ، وان يكون ختالاً عظيماً ومداهناً . والناس بله ، سرعان ما يستجيبون للضرورة العارضة ، وان الخَدّاع لا يتعذر عليه أن يجد خُدَعة » . (من يخدعه الناس) :

وواضح ان أمثال هذه العادات وهذه الحكم لها تبعات عظيمة تؤثر في الطباع . فهذا التُقدّم المطلق في العدل والأمن ، واستباحة الدماء والأرزاق ، وهذه الفريضة التي اعتنها المرء في الانتقام الصارم ، وانه لا يعيش إلاّ اذا كان مرهوب الجانب ، وهذا الشعور الدائم الى القوة يملك النفس ، جميع هذه الأسباب تجعل الانسان يعتاد التطرف والسرعة في الحكم ، ويفرض عليه أن يخشى القتل أو يستقتل في القتال ، وعادته يحيا في خطر متواصل وتهديد ، فتمتلئ حياته بالهموم العظيمة والميول الحزينة ، ولا ينصرف ليميز بدقة تنوع عواطفه ، وليس خافياً ، من صحابة التدبير والنظر والاطمئنان، فالاضطرابات التي تعمه عظيمة وساذجة . وليست القضية انتقاماً في تقديره ، أو جزءاً من ثروته مهدداً بالضياع ، بل حياته كلها وحياة نفسه . فيجوز أن يسقط من علٍ الى الحضيض ، ويستيقظ على طعنة سكين أو مرتبقاً في حبالة جلاد . ان الحياة عاصفة والارادة متحفزة ، والنفوس قوية يتوافر لديها كل ما تحتاجه من عبث .

وكان بودي أن أجمع كل هذه الحوادث وأبرز للوجود شخصاً يضطرب لا وهماً مجرداً . ولدينا مذكرات خلفها أحدهم ، مكتوبة بيده بأسلوب في غاية البساطة ، وهي تفضل مؤلفاً من حيث الفائدة . فإنها تظهر للقارىء أساليب المعاصرين في الشعور والتفكير والحياة . ويمكن اعتبار « شلّيني » (١٥٠٠ — ١٥٧١) مثالاً جلياً للعواطف المنبعثة ، والحياة المقتحمة ، والعبقريات الغريزية القوية ، والمواهب الخصيبة الخطرة التي أحدثت النهضة في ايطاليا وأنتجت الفنون في الوقت الذي كانت تعمل فيه على هدم المجتمع . وأول من يطالعنا منه قوة

النشاط الباطني ، والطبع الشديد الشجاع ، والبديهة الحازمة ، وعادة الفعل السريع والمواقف المتطرفة الحاسمة ، والقدرة العظيمة على العمل وتحمل العذاب . وبالايجاز قوة المزاج البكر الصعبة المراس . ذلك هو الحيوان البهي المحارب الصلب ، التي غذته آداب القرون الوسطى الشرسة ، وزينه في عصرنا انتشار السلام واستتباب الأمن .

***

كان « بنفنيتو سليني » في السادسة عشرة من عمره ، وأخوه « جيوفاني » في الرابعة عشرة . وفي أحد الايام سبّ جيوفاني أحد الفتيان فطلب مبارزته . فخرجا الى ظاهر المدينة وتسايفا ، فجرد جيوفاني خصمه من السلاح وجرحه . وفي تلك الاثناء وصل أهل الجريح فاستاقوه ورموه بالحجارة الى أن جرح الفتى المسكين وسقط . وصل « سليني » ساعتئذٍ فالتقط السيف وانقضّ على المهاجمين وتحاشى الحجارة ما أمكنه ، ولم يبعد عن أخيه قيد أنملة . وكان على وشك أن يقتل لو لم ينحز اليه بعض الجنود الذين مروا مصادفة ، فساهموا في انقاذه اعجاباً بشجاعته . عندئذٍ تناول أخاه وحمله على كتفه ونقله الى البيت ، وانا لو لجدون مائة حادث عائل تشهد جميعها بقوته وبأسه وانها معجزة أن ينجو من الموت المحقق أكثر من عشرين مرة . ولا يسير إلاّ متقلداً سيفاً أو بندقية أو حاملاً بيده خنجراً ، سواء كان في الشوارع أو الطرق ، ليتقي شر أعدائه أو جنوداً أفاقين ، أو قطاع الطرق أو منافسين متنوعين . انه يتسلح بغية الدفاع عن نفسه لكنه غالباً ما يهاجم . ويعد هربه من قصر « سانت — أنج » الذي سجن فيه على أثر ارتكاب جريمة قتل ، أكثر هذه الحوادث اثارة للدهشة . اذ انه هبط من علو شاهق متدلياً بحبال اتخذها من شراشف سريره ، وفي طريقه الى الأرض ، صادف خفيراً يورد ذلك الدوم الرهيب تتظاهر بأنه لم يره ، فعبر السور الثاني فوق خشبة ، ثم ربط حبله الأخير وتدلى . لكن هذا الحبل كان قصيراً ، فسقط وكسرت ساقه دون الركبة . عندئذٍ عصب ساقه وبدأ يزحف ، والدم يقطر منه ، الى أن بلغ باب المدينة ، فوجده مغلقاً ، فتناول سكينه وبدأ يحفر الأرض الى ان تمكن من الانزلاق . ولما أصبح خارج السور هاجمته كلاب فبقر بطن أحدها . ثم صادف حمالاً ذهب به الى دار صديق . لم يبق ثمّ مجال لذلك في النجاة ، وينفي هذا الأمل عهد البابا . لكنه لم يلبث ان فوجيء وقبض عليه وزجّ في سجن مظلم نتن ، لا يدخله نور الشمس الاّ ساعتين في اليوم . وجاء الجلاد يوماً فأخذته الشفقة عليه ، فاستبقاه ذلك اليوم . ومنذ ذلك الوقت اقتصر على سجنه . فكانت المياه تنضح من سجنه وهرأه القش الذي اتخذه فراشاً ، ولم تندمل جراحه . وظلّ على هذه

الحال بضعة أشهر إلى أن أفرج عنه دون أن تهن قواه ، فكأنما نفسه وجسمه قدّا من الرخام والصوان : أمّا خلقتنا العارية فكأنها من الطباشير والجبس .

ولا يقل خصب سليقته عن قوة بنيته ، وما أبين العبقرية وأجزل الخير في هذه النفوس البكر المليحة . وقد توفرت له القدوة والمثال في عائلته ، كان أبوه مهندساً في البناء ورساماً ماهراً ، وموسيقياً هاوياً ، كثيراً ما يتناول الربابة ويغني منفرداً كي يسر ، وكان يصنع أراغن خشبية ممتازة ، ومزامير وربابات وقوانين ، وكان يتقن نحت العاج ، وماهراً جدّاً في صناعة الآلات ، وينفخ بالناي في وسط مزامير السادة ، ويعرف جزءاً يسيراً من اللاتينية ويقرض الشعر بين الفينة والفينة . ويتصف رجال هذا العصر بالشمول ، فاذا ضربنا صفحاً عن « ليوناردو دفنشي » و « لوران دمديتشي » و « ليون باتيستا » و « ألبرتي » والعبقريات الرفيعة ، وجدنا بين رجال المال والأعمال والرهبان والعمال فئة نمت بذوقها وعاداتها إلى مستوى يجعلها جديرة أن تعالج الامور وتتذوّق الملذات التي نحسبها في العصر الحاضر وقفاً خاصّاً على الأشخاص الذين أحرزوا ثقافة عظيمة وفطروا على أدق ما عرف من السجايا . وكان « سلّيني » في عداد هؤلاء . فقد أصبح عازفاً وناقشاً في صور ، ممتازاً ، رغماً عنه ، لأنه كان يمقت هذه الآلات ولا يعكف عليها إلاّ ابتغاء مرضاة والده . وفيما عدا ذلك فانه أضحى منذ نعومة أظفاره رسّاماً ممتازاً وصائغاً ونقاشاً على الزجاج والمعادن بالمينا ونحاتاً وسباكاً وفي نفس الوقت أتى نفسه مهندساً وصانع أسلحة وآلات ، وبنّاء حصون ، ويبز أرباب المهنة في حشو وتقليب وتسديد الأسلحة . وكان يتولى صنع أسلحته وبارودة ، ويروى عنه أن قذيفته كانت تصيب طائراً يبعد مائتي خطوة . وقد وهب عبقرية انبعثت بالتفوّق في الإختراع والإبداع ، فلم يزاول فنّاً أو صناعة إلاّ وتكشفت له أساليب خاصة يكتم سرّها فتثير إعجاب الناس . هذا هو عصر الابداع : كل ما فيه غريزي ، ولا شيء يكتسب بالممارسة . والعقول خصيبة جدّاً ما عالجت أمراً إلاّ أحيته وثمّرته .

عندما تبلغ السليقة هذه الدرجة من القوّة ، وتعج بكثير من الصفات ، وتزخر بالنتاج ، ولما تتفاعل كل الكفايات بنشاط وإتقان ، ويظل النشاط مستمرّاً ومتماظياً ، يصبح لحن النفس العادي فيضاً من الفرح والحيا والغبطة القوية . فترى « سليني » مثلاً ، بعد نجاته من مجازفات ناجمة رهيبة يخرج للسفر . ويقول عن نفسه : « انني ما انقطعت عن الغناء والضحك » طول مدة السير . وهذا الانتعاش السريع الذي يتطرّق الى الروح مألوف في إيطاليا ، وخاصة في مثل هذه السن حيث لا تزال النفوس ساذجة . ويقول أيضاً : « بعد أن شاركتني أختي قليلاً في البكاء على والدها وامها وأختها وزوجها وطفلها الصغير الذين

اصطاد الله بهم ، فكرت في إعداد العشاء . ولم تتحدث عن الموت طوال الأمسية ، بل تحدثنا عن ألف أمر فرح . وليس هناك ما يعدل وجهنا ، بهجة وعظمة ، فانه كان يعيش في روما حيث تتراكم المهاجات في كل لحظة ، وحصار المخازن ، والمخاوف من القتل ، والسم ، والاهنية ، والمساخر والمهازل المتكررة ، وألوان الحب الصريح ، الاباحي ، المجرد من كل نعومة ، لا يصونه ستر ، وهو يجانس العري الشهير الذي يؤثر عن الفنون الفلورنسية والبندقية كما يتجلى في الرسوم المعاصرة . ولا سبيل الى ذكر شيء عن هذا الحب أو إظهار شيء يتعلق به على مسمع ومرأى من الجمهور لانه ممعن في العري والتجرد . ومع ذلك ، فإن المجون المنحط أو الفحش الصفيق المحض لا يشين أو يفسد هذا الحب . فالانسان يغرق في الضحك حتى القهقهة ، ويتمادى في السرور الخالف للحشمة ، مثله في ذلك مثل الماء الذي يجري من منحدر . وتتجلى سلامة النفس والخواص البكر الفتية ، والثورة البهيمية الطافحة ، في شهوته ، كما تتجلى في نتاجه وعمله . ومن الطبيعي أن تقضي هذه البنية الخلقية والفيزيائية الى الخيال الحاد الذي أتيت على وصفه فيما مر . ولما يكون الانسان مكوناً على هذه الشاكلة ، لا يلمح الأشياء مجزأة وبواسطة الكلام كما نفعل نحن ، بل إنه يبصرها كتلة وبواسطة التصورات . وأفكاره ليست مبوبة ومصنفة ومحصورة في معادلات مجردة كأفكارنا ، بل تتطاير مكتملة وملونة وحية . نحن نفكر وهو يتصور . ولهذا السبب تكثر خيالاته . وهذه الأذهان المفعمة والآهلة بالصور الفنية تظل أبداً في غليان وغليان . « فسلبتي » لا يسمو في معتقداته عن الطفل ، وهو متطير كالرعاع . وكان هناك شخص لا ينفك يطعن في سليني وفي عائلته بالقول . وفي أحد الأيام صرخ وهو في ثورة غضبه « اذا كان ما أقول غير صحيح ، فليسقط « بيتي علي » وكان أن انهار البيت بعد زمن ، وكسرت ساقه . فلم يتردد « سليني » أن يعتبر هذا الحادث تدبيراً من العناية الإلهية التي شاءت أن تعاقب الشخص على كذبه . ويروي ، برصانة لا تشوبها شائبة ، أنه كان مرة في روما تعرف الى ساحر ذهب به في احدى الليالي الى مدرج « كوليزه » Colisée فأخذ يتلو مصعوقاً غريباً على لحم منقد ويتمتم بكلمات سحرية ، وبغتة تراءى له أن السور قد عمرته الشياطين . ومن الطبيعي أن يصاب بالهلع في يومه ذاك . وفي السجن تهيج أفكاره ، واذا كان لم يغلب على أمره من تأثير الجراح ونتن الهواء ، فلأنه التفت صوب الله . وجرت محادثات طويلة بينه وبين ملاكه الحارس . وكان يتمنى رؤية الشمس ، سواء في الحلم أو في الحقيقة ، فرأى نفسه يوماً محمولاً أمام شمس بهية ، خرج منها يسوع المسيح فالعذراء وأشار إليه إشارات تحنن ، وشاهد السماء وبلاط الله بأسره .

هذه التصورات مألوفة في ايطاليا . فالانسان يستحيل بغتة شيئاً آخر بعد ان يتصبب حياة فاجرة عنيفة ، وغالباً عندما يكون لا يزال منغمساً في حمأة الرذائل . « أصيب دوق «جيراره» بمرض عضال حبس بوله مدة ثمانياً وأربعين ساعة . فاستعاذ بالله وطلب أن تدفع جميع الرواتب المستحقة الأداء » . وكان « هرقل إست » يذهب ينشد القداس مع فرقته المؤلفة من موسيقيين فرنسيين ، على اثر انصرافه عن منكر . ومثل عيوناً او قطع أيدياً لمسجونين يبلغ عددهم مائتان وثمانون قبل ان يبيعهم ، ثم ذهب يوم خميس الأسرار يغسل أقدام الفقراء . وكذلك لما علم البابا الكسندر بقتل إبنه ، أخذ يقرع صدره واعترف بذنوبه أمام كرادلته ، فالخيال بدلاً من ان يغرق في اللذة ، يتحول شطر الخافقة ، وعقلهم ، بطريقة مماثلة ، يتأثر بصور دينية لا تقل خبرة عن التصورات البهيمية التي كانوا يعيشون منغمسين بها. وهذا الهيجان وهذه الحمى التي تنتاب الفكر ، ومن هذا الرعاش الباطني الذي يتبع التصورات الشاغلة ، الشتته ، ان ترج النفس بأسرها والهيكل الجثماني بأسره ، فيتولد أسلوب من العمل ، خاص برجال هذا العصر ، شديد الحمية ، لا يقهر ولا يحيل عن قصده ، يستهدف كل ما هو متطرف ، حاسم ، كالصراع والقتل والهم. وحياة « سلتيني » مليئة بهذه الزوابع والصواعق . في أحد الأيام اعتبك في قتال مع صائغين يتنافسانه وبدءا يثلبانه . « وبما أنني لا أعرف لوناً للخوف ، فلم أعر تهديدهما اهتماماً. ولما كنت منصرفاً للكلام ، اغتنم أحد أبناء أعمامهم ، بإيعاز منهم على ما أظن فرصة مرور حمار ، بالقرب منا ، يحمل قرميداً ، ودفعه نحوي دفعة قوية آلمتني كثيراً ، فالتفت إليه من فوري ، فأبصرته يضحك فلكمته لكمة على صدغه ، أفقدته وعيه وسقط مغمياً عليه . وناديتهم قائلاً : انظروا كيف يعامل الأخساء الجبناء الذين هم على شاكلتكم . ثم تبين لي أنهم يتحفزون ليثبوا عليّ ، لأنهم كانوا كثيري العدد ، فاستفزني الغضب وانتضيت سكيناً صغيرة وخاطبتهم قائلاً : ان أراد أحدكم أن يبرح الدكان فليذهب الآخر مسرعاً يبحث عن معرّف لأن الطبيب لن يعود يفيد شيئاً . ألقت هذه الكلمات الرعب في قلوبهم . فلم يجرؤ أحد منهم على الخروج كي يغيث ابن عمه . » . وعلى أثر ذلك دعي للمثول أمام محكمة الثمانية ، وهم قضاة مكلفون بأعباء العدل في فلورنسا ، وحكم عليه بغرامة قدرها أربعة مكاييل من الدقيق . وتحدث فقال : « سخطت وبدأت أرتعش غضباً حتى أصبحت كالأفعوان واختطت خطة يائسة ... انتظرت الى ان انصرف الثمانية ليتغدوا ، ولما ألفيت نفسي وحيداً ، وتبين لي ان ليس ثمة شرطي يراقبني خرجت من القصر مسرعاً قاصداً حانوتي . فتسلحت بسكين وطرت مسرعاً بيت أعدائي . فوجدتهم جالسين الى المائدة ، فلما وقع بصري « غيراردو » الذي عليّ وهو ابن المشاجرة ، هجم عليّ ، قصدت الى صدره طعنة سكين مرقت من دراعه وطرته

وقيصه دون أن تمس جلده ودون أن تحدث له أذىً ما . خيل إليّ اني جرحت عدوي جرحاً فظيعاً نظراً للسهولة التي مرت بها سلاحي وأصوات التمزق التي نشأت من تهلهل الثياب. وكأنه ظن ما ظنلت فسقط على الأرض من فرط الذعر. فصرخت قائلاً: أيها الخونة! سأقتلكم اليوم جميعاً » . ظن الأب والأم والأخوات ان ساعة الدينونة قد دنت، فسجدوا على ركبهم يبتهلون . فلما ظهر لي أنهم لا يجرؤون على الدفاع عن أنفسهم وان « غيراودو » صريع جثة هامدة، رأيت أن العار لاحق بي اذا مسستهم بسوء فقفزت الى أسفل السلم وأنا لا أزال في سورة الغضب . وفي الشارع صادفت بقية أفراد العائلة الذين لا يقل عددهم عن الاثني عشر شخصاً . كان أحدهم يحمل رفشاً حديديًّا، والآخر قطلاً ثقيلاً من ذات المعدن، وبعضهم يحملون مطارق أو مناجل، والآخرون عصياً . فانقضضت عليهم كثور، وبتأثير الصدمة قلبت أربعة أو خمسة منهم، ومقتت معهم لكنني ما انفككت أضرب بالسكين ذات اليمين وذات الشمال » .

وكما تتوالى الشرارة والانفجار، هكذا تتعاقب عنده دائماً الفكرة فالحركة فالضربة . لأن الاضطراب الباطني الذي يبلغ الذروة من العنف، يتنافى مع التفكير والخوف والشعور بالعدل، وكل ما من شأنه أن يجعل المرء يلجأ الى التقدير والتعقل اللذين يخلقان عند الرجل المتمدن أو عند ذي المزاج البارد فسحة، أو ما يشابه الكتلة المترهلة، بين ابتداء الغضب والفصل النهائي . وكان يوماً في فندق فنام القلق في صاحبه، وقد يكون على حق في ذلك ؛ لأنه كان يرغب أن يقبض الثمن قبل أن يقدم الأشياء الضرورية . وفي ذلك يقول ملبني : «لم تغمض عيني برهة واحدة، بل قضيت الليل كله أبحث عن خطة للانتقام. خطر لي أولاً أن أشعل النار في البيت، ثم أذبح الخيول الأصيلة التي ربطها صاحب الفندق في اصطبله . وكان كل أمر يبدو لي سهلاً اتيانه، لكنني لم استسهل الهرب مع رفيقي » فقنع بتمزيق ونتف أربع فرش بسكينه . وهبط مرة مدينة فلورنسا ليصب عثال « برصه » فتنابته الحمى وارتفعت درجة الحرارة، فكان يخيل لمن يراه أنه يعاني سكرة الموت لكثرة ما قاسى من وطأة الحمى وما قضى من الليالي الطويلة يرقب السبك . وفي هذه الاثناء أتى صانع مسرعاً يصرخ قائلاً ان السبك قد فشل . « أرسلت صيحة رهيبة بلغت السماء السابعة ونهضت من الفراش وشرعت ارتدي ثيابي وأنا لا أنفك أمطر خادماتي وغلماني، الذين أقبلوا لمساعدتي، وابلاً من الركلات واللطمات » . وحدث له مرة أخرى أن كان مريضاً، وحرم عليه الطبيب الشرب، فتمكنت الخادمة عليه وناولته قدح ماء . « وقيل لي فيما بعد أن الطبيب المسكين سقط مغشيًّا عليه لما بلغه النبأ . فتناول مهماً وطفق يضربها بشدة ويقول

«آه! يا خائنة! قتلته» . ولم يكن الخدم أقل سرعة من السادة الى الضرب، وليس الضرب فقط بالعصا، بل بالسيوف أيضاً . ولما كان «سليني» سجيناً في قصر «سانت — أنج» صادف أحد تلاميذه شخصاً أخذ يسخر منه ويقول ان «سليني» قد مات بدون شك . «هو حي»! أجاب التلميذ فوراً . «أما أنت فستموت» . وفي الحال صفقه ضربتين بالسيف على رأسه: مزقته الاولى وقطعت الثانية ثلاثة أصابع من يده اليمنى» . وهناك ما لا يحصى من الحوادث المماثلة التي جرت له في فرنسا وايطاليا وكل مكان . وفي كل مرة كان يقتل أو يجرح خصمه . وقد يكون هذا الخصم تلميذاً له ، أو عشيقة ، أو عدواً ، أو صاحب فندق ، أو سيداً ، أو قاطع طريق . لنتناول إحدى هذه الأقاصيص ولنتدبر بعناية الظروف البسيطة في الرواية التي تصور العواطف . «شاع الخبر أن أحد تلاميذه قد قتل . «أطلق أخي المسكين صيحة غضب عظيمة يمكن سماعها لمسافة عشرة أميال . ثم التفت الى «جيوفاني» وسأله قائلاً هل يمكنك ، على الأقل ، أن ترشدني الى الشخص الذي قتله؟ فأجاب «جيوفاني» بنعم وان القاتل من الذين يحملون سيفاً يقبض باليدين وزين قلنسوته ريشة زرقاء . فتقدم أخي المسكين من القاتل ، وقد ساعدته هذه العلامة على معرفته ، ووثب في وسط العسس بسرعة وجرأة غريبتين عهدنا فيه دون أن يستطيع أحد وقفه وركل خصمه ركلة بقرت بطنه ومزقت رجله منه ثم دفعه الى الأرض مع قبضة سيفه وهاجم الباقي من العسس بجسارة عظيمة . وكان في قدرته أن يجعلهم يولون الادبار لو لم يطلق عليه قواس عياراً نارياً ، دفاعاً عن نفسه ، أصابه فوق ركبته اليمنى ، فسقط وانكفأ العسس انكفاءة سريعاً خوفاً من ظهور بطل آخر رهيب» .

جيء بالشاب المسكين الى بيت سليني وأجريت له عملية فلم تنجح . ويعود سبب فشلها الى جهل الجراحين في ذلك العصر ، فمات متأثراً من جراحه . عندئذ اغتاظ «سليني» وثارت أفكاره في رأسه .

«لم يعد لي هم إلا أن أرقب ذاك الذي قتل أخي كما ترقب حظية . وقد بدا لي أن الرغبة الملحة في رؤيته حرمتني النوم والطعام وأفضت بي الى مسلك سيء . فتأهبت للخروج من هذا المأزق مهما كلفني الأمر من الثمن . فاقتربت منه بلباقة وبيدي سكين كبيرة شبيهة بسكين الصياد . وكنت آمل أن أباغته من القفا وأطيح برأسه لكنه التفت بسرعة عظيمة فلم أصب إلا كتفه اليسرى وكسر العظم . ثم نهض وطرح سيفه وبدأ يركض لما أصابه من الألم . فتبعته وأدركته بعد أربع خطوات وأسلمت السكين فوق رأسه المطأطأ وعككته بها فغار النصل بين الفحدوة والنقرة وبذلت كل جهدي فلم أقو على إخراجها» .

وعلى أثر ذلك فكوه الى البابا . لكنه قبل أن يؤم القصر فطن الى صنع بعض الحلي . «لما ظهرت أمام الباب لحظني متوعداً فرعشني . وحالما وقع نظره على المصاغ انبسطت أسارير وجهه» . وارتكب مرة أخرى جرماً لا يقل فظاعة عن سواه ، فأجاب البابا اصدقاء القتيل « اعلموا ان اشخاصاً تفردوا بفنهم كشليني لا يجب ان يرضخوا للقوانين ، وخصوصاً هو ، لأني أعلم أنه حق له ان يفعل ما فعل » .

كل هذا ينبئنا عن مدى تأصل عادة القتل في ايطاليا يومذاك . فزعيم الدولة ، ونائب الله ، يرى من الطبيعي ان يحتقر الناس ، ويسدل على القاتل ستاراً من اللامبالاة او المقران او المحاباة ، او العفو .

من الحالة التي تسود فيها هذه العادات وهذه الأفكار تتولد تبعات كثيرة لها أثرها في التصوير . فالناس في ذلك العصر مضطرون قبل كل شيء ان يهتموا بأمر نجهله نحن جهلاً تامًّا لأنه لا يقع تحت نظرنا ولا يسترعي انتباهنا مطلقاً : وأعني بذلك الجسم والعضلات والأوضاع المتنوعة التي يتخذها الانسان أثناء القيام بحركة ما . لأن الرجل يومذاك مهما سمت منزلته ، عليه أن يكون جنديًّا يتصرف بالسيف والخنجر تصرفاً متقناً بغية الدفاع عن نفسه . ومن ثم يطبع في ذهنه ، وبدون أن يعي ، كل الاشكال وكافة أوضاع الجسم المتحرك او المحارب . ويرى الكونت « بالتازار » ، وهو يصف المجتمع المهذب ، يعدد المزايا التي يجب ان يمهر بها الشخص المرتب . وسنرى من المقاطع التالية ان الغاية التي كانت تهدف اليها تربية الاشراف في ذلك الزمان ، وبالتالي الأفكار التي كانت تبث ، لا ترمي الى تنشئة المرء عالماً بأفانين السلاح فقط ، بل ان يشب على غرار مصارع الثيران والرياضي والفارس المغوار : « أريد أن يكون رجل البلاط عندنا حاذقاً في ركوب الخيل مهما تنوعت السروج . ولما كان من مزية الايطاليين الخاصة أن يسوسوا الحصان جيداً بواسطة العنان ، ويروضوا الخيول الشامسة وفق مبادىء خاصة ، ويطاعنوا ، فاني أرغب أن يكون مبرزاً في هذه الامور بين المتفوقين من الايطاليين أنفسهم . وان يكون من المجلين بين قرنائه الفرنسيين في النزال والسباق بين الحواجز . وأن يكون ممتازاً بين الاسبانيين في مصارعة الثيران ورمي السهام وطعن الرماح . . . ويحسن به أن يتمرن على القفز والركض ، ويحذق رياضة اخرى نبيلة هي لعب الكرة . ولا يضيره ابداً ان يتقن الجولان ممتطياً صهوة جواده » .

وليست هذه الأقوال مجرد تعاليم يتذاكر بها الناس او أشياء انزوت في بطون الكتب ، بل كان القوم يعملون بموجبها وقد اتسمت بها عادات الاعيان من المجتمع . « فيوليان

دو مديتشي » الذي فتك به آل بازي ، لم يعلمه مترجمه لموهبته الشعرية وصواب معرفته بالامور فقط ، بل لمهارته أيضاً في الفروسية والمصارعة ورمي الرمح. وكانت يدا قيصر بورجيا هذا السفاح العظيم والسياسي المحنك ، قويتين كذكائه وارادته . فمن يتأمل صورته يره شخصاً ظريفاً ، ومن يقرأ تاريخه يتحقق لديه انه داهية . لكن ترجمته الصحيحة اظهرته لنا فتاكاً ، لا ينفك يفخر ببأسه وفتكه بالعرب ، كأكثر الاسبانيين . وهو ليس بالغريب منهم لان عائلته قدمت من اسبانيا . وقد قال أحد معاصريه : « هو في السابعة والعشرين من عمره ، له جسم بارع الجمال ، وان أباه البابا يخافه كثيراً . فقد صرع ستة ثيران ضارية وهو يجول على جواده وبيده حربة ، وفلق رأس أحدها بضربة واحدة » .

لنتأمل أناساً رياضيين على هذا النمط وقد مارسوا وتذوقوا جميع أنواع الرياضات البدنية. انهم على استعداد تام لكي يتفهموا تمثيل الجسم ، أي أن يتقنوا التصوير والنحت . فالجذع المنعطف ، والفخذ المنثني ، والذراع التي ترتفع ، والوتر الناتئ ، وبالجملة كل الحركات وجميع أشكال الجسم البشري توقظ فيهم تصورات باطنية سبق لهم ان رأوها .

* * *

ومن جهة أخرى ، فان فقدان العدل والنظام ، والحياة التي تكثر فيها المخاصمة ، وتتوفر فيها دائماً أفظع انواع المهالك ، كل هذه الاسباب تفعم النفس بالأهواء العنيفة الساذجة العظيمة ، وتجعلها متأهبة لتذوق الحماسة والسذاجة والعظمة في مختلف الاوضاع والاشكال

ذلك لان ينبوع الذوق هو التعاطف sympathie ، ولكي يسرنا شيء بليغ ينبغي ان يكون تأثيره مطابقاً لحالتنا الخلقية . وللأسباب نفسها نلاحظ ان الاحساس أصبح نادراً لانه كبت في الباطن بسبب الضغط المرعب الناتج عن كل ألوان الوعيد التي تكتنف حياة الانسان . وكلما تألم المرء وخاب وكدّ ازدادت رغبته في الترسل وكلما اشتدت على نفسه وطأة الهموم العنيفة او التأملات القاتمة ، يتعاظم شعوره بالسرور في حضرة الجمال المنسجم الرفيع . وكلما اشتد أو كبح جماح اهوائه ابتغاء أن يجهد نفسه او يصانع ، يحلو له أن يتمتع عندما يصبح بمنجاة من الاذى أو عندما يرسل نفسه على سجيتها . وان صورة موضوعة في مخدعه تمثل السيدة العذراء في هدوئها وطهرها ، او تمثال فتىً ذي بأس موضوع فوق سريره ، تسترقان نظره وتزيدان في لذته لدى انعتاقه من هموم مذمومة وأحلام مزعجة. وان الحديث السهل المتنوع ، الخالي من القيود ، الذي لا ينفك يتجدد وتكثر أفانينه ، لا يقوى على استهوائه . ففي السكون الذي يهرب إليه ، ينشد العزلة ويناجي سراً ، الألوان والأشكال . وان الظروف الحقيقية التي تكتنف حياته المألوفة ، وكثرة الأخطار

التي يتعرض لها ، وصعوبة الاباحة بأسرار القلب ، لا عمل لها إلا أنهما تزيد في إضرام وتصفية التأثرات التي يستمدها من الفنون .

لنجرب الآن أن نحشد كل هذه الفعال التي تتعلق بالطبع ، ولنتطلع ، من جهة ، الى رجل من معاصرينا ، شيء أحسنت تربيته ، ومن جهة ثانية الى سيد عظيم عاش حوالي عام ١٥٠٠ . وكلا الرجلين منتخبان من الطبقة التي نبحث فيها عن قضاة يحسنون الحكم .
إن معاصرنا يستيقظ الساعة الثامنة صباحاً ، ثم يرتدي قباءه ويتناول شيئاً من الشوكولاتة، بعدئذ يقصد مكتبته فيقلب أوراقاً لاطائل تحتها اذا كان أحد رجال الأعمال . أو يتصفح بعض الكتب الجديدة ، اذا كان رجلاً اعتاد أن يغشى المجتمعات . وبعد أن يسير قليلاً على سجادة وثيرة ، يفطر في غرفة يدفئها السعار ثم يخرج يتنزه في الشارع هادىء الفكر ، لايساوره قلق ، ويدخن سيجاره . وقد يحلو له أن يدخل نادياً ليقرأ الصحف أو يتحدث عن الادب أو أنباء البورصة أو السياسة أو القطر الحديدية . ولما يعود الى بيته ، وأن يكن على قدميه وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، يعلم جيداً أنّ الشارع يعج بزمرة من رجال الشرطة وسوف لاينالهُ أذى . فيأوي الى فراشه مطمئن البال ، عازماً على أن يستأنف سيرته عندما يصبح الصباح . هذه هي الحياة الحاضرة بجميع أوصافها . ماذا أبصر هذا الرجل مما يختص بالجسم ؟ انه ذهب الى الحمامات الباردة وتأمل هذا المستنقع الذي يستثير السخرية حيث تخومه كل أنواع الشناعة البشرية . وقد يحدث له ، اذا كان طلعة ، أن يشاهد مصارعين في المعارض ثلاث أو اربع مرات طيلة حياته . اما فيما يختص بالعري فلم يتح له ان يشاهد أوضح مما شاهد من اجسام حلزون الأوبرا . وما هي التجارب التي مرّ بها كي تتولد في نفسه آلام عظيمة ؟ من الجائز أنه لا يعرف الا الفتن التي يولدها الغرور ، او القلق الذي ينشأ عن المال : كأن يكون اساء التخمين في البورصة ، او لم يحرز مركزاً يصبو إليه ، اغتصبه اصدقاؤه وقالوا عنه انه مغفل ، أو أن زوجته تبذر مالاً كثيراً وابنه ارتكب حماقة . أنه يجهل الأهواء العديدة التي تعرض لخطر حياته وحياة من يمت اليه بصلة ، أو تودي برأسه الى الجلاد أو تنأى عنقه على خشبة ، او تقذف به في غياهب السجن ، او تقتاده الى العذاب والموت قتلاً . إنه يحيا حياة هادئة جداً ، تحميه الأنظمة والقوانين ، وتتجاذب شخصه إحساسات عديدة لطيفة لذيذة ويجهل الحالة الباطنية التي تخامر إنساناً يضطر لقتل غيره كي ينجو بنفسه إلاّ اذا استثنينا المصادفة التي تتيح له مبارزة محصورة بالإكرام والتلطف .

لنتفحص حياة أولئك السادة الذين سبق الكلام عنهم أمثال « أوليفرتو » ،

و« ألفيراس دست » وقيصر بورجيا و« لوران دو مديتشي » ورجال حاشيتهم ، وكل اولئك الذين تلقي في يدهم مقاليد الامور . فالمهمة الرئيسية التي يفرضها على نفسه الشريف أو الفارس في عصر النهضة هي ان ينهض من فراشه ويتجرد من ثيابه ، ويحذو حذوه أستاذه في شؤون السلاح ويتناول بإحدى يديه خنجراً وبالاخرى سيفاً كما تمثله النقوش المثبتة على الجدران . ما هي الأعمال التي تستغرق أوقاته وما هو الفرح العظيم الذي ينشده ؟ انه يتحقق مواكب الفرسان ، والمفاخر ، ودخول المدن ، والأبهة الوثنية والنزال والترحاب بالملوك حيث يظهر على صهوة جواده مرتدياً أجمل ما عنده ، ناشراً طوقه المخرم المدبج الموشى بالذهب ودراعته المخملية ، وهو فخور بجمال هيبته وهيئته الحازمة التي يعول عليها وعلى أصحابه في اعلاء شأن ملكه . وكثيراً ما يرتدي درعاً تحت صدرته عند ما يغادر بيته نهاراً . ويتحتم عليه أن يظل بمنجاة من طعنات خنجر او سيف قد تسدد اليه في زاوية شارع ما . ويظل بعيداً عن الطمأنينة حتى ولو كان بين جدران قصره . وان الأركان الحجرية والنوافذ المشتبكة بالقضبان الغليظة والمتانة الحربية التي يتسم بها البنيان تذكر لنا ان البيت كالدرع ينبغي ان يحمي صاحبه كل هجوم وان الرجل لما يصبح في بيته ، وقد ارتج بابه وجلس تجاه صورة وصيفة جميلة أو عذراء او بحضرة « مرقل » ما او ابن خالد زاده تدثره مهابة وبرزت عضلاته نامة عن قوة وحزم ، ان هذا الضرب من الرجال أقدر على تفهم جمال هذه الصور وكمالها الجثماني من رجل عصري . وليشعر ، دون أن يختلف الى أماكن الفنانين ، بل بواسطة عاطفة لا دخل للارادة فيه ، جمال العري الذي يوحي البطولة ، وروعة العضلات المفرعة في فن « ميكلانجيلو » ، والصحة والوداعة والنظر الساجي في إحدى عذارى « رافائيل » ، والحيوية الحركة الطبيعية في أحد تماثيل « دوناتللو » ، والجلسة العوجاء الفتانة في أحد صور « ليوناردو دفنشي » والانفة البهيمية الأنيقة والحركة الفائرة والقوة والفرح والجبار التي تتصف بها أشخاص « تنتوره » و « تيسيان » .

الفصل السادس

ان تلك الحالة الذهنية ، الجديرة بالتصوير ، الكائنة بين التفكر البحت والتصور الصرف والسجايا ذوات العزم والشيم العنيفة ، جديرة بأن توحي بمعرفة الأشكال للمادية الحية وتذوقها. تلك هي الظروف الزمنية التي انتجت في ايطاليا ، بالاشتراك مع الاستعداد الفطري السلالي ، العظمة والكمال في تصوير الجسم البشري . ولم يبق لنا إلا أن نجوس خلال الشوارع أو نغشى الأماكن التي يعمل فيها الفنانون ، فنتحقق أن التصوير يولد من تلقاء نفسه وليس كما هي الحال عندنا ، نتاج مدرسة ، وأعجوبة النقاد ، وعبث الفضوليين ، وحماقة الغواة وغرماً اصطناعيًّا اقتضى نفقات باهظة ؛ ثم ما لبث أن أصابه الذبول رغم الدبال الذي يحيط به . وعلة ذلك ان الغرس غريب ويتعذر الاحتفاظ به حيًّا في أرض وهواء كونا ليتنجا علوماً وآداباً وصناعات وشرطاً وساعة . فالمدن التي تغشى دورها الرسمية وكنائسها بالصور المنقوشة تنثر حول فن التصوير مئات اللوحات الحية التي تفوق هاتيك الصور بالأبهة وإن كانت سريعة الزوال . وليس علينا إلا أن يلخص تلك المشاهد العابرة . والناس في ذلك العصر من هواة التصوير ، ولا يتبادر الى الذهن أن هذا الهوى لا يستغرق إلا مدة وجيزة من حياتهم ، بل يدوم طيلة عمرهم ، ويتجلى في احتفالاتهم الدينية وأعيادهم القومية واستقبالاتهم العامة ، وفي شؤونهم وأفراحهم .

لنراقبهم عن كثب أثناء العمل : فالنقابات ، والمدن ، والأمراء والأساقفة ، ينشدون الجد واللهو في المواكب الأنيقة الفاتنة ، وعرض الجند . واني سأتكلم عن إحدى هذه التظاهرات ، وأدع القارئ يتخيل هيئة الشوارع ، والساحات التي كانت تزخر بهذه الأبهة مراراً كثيرة خلال العام الواحد : « كان لوران دمديتشي ، رئيساً لجمعية « برونكون » . فشاء أن تبز جمعيته بالأبهة جمعية « ديامان » . فعهد بالمهمة الى « جاكوبو ناردي » Jacopo Nardi أحد شرفاء وعلماء فلورنسا الذي أعد له ست عجلات .

« ان العجلة الأولى ، التي يجرها ثوران تغشيهما أوراق الأشجار ، كانت تمثل عصر زحل ويانوس . وعلى قمة المركبة قد استوى زحل ، وبيده منجله ، ويانوس قابض على مفاتيح معبد السلام . وقد أثبت المصور « بونتورمو » Le Pontormo (١٤٩٣ — ١٥٥٨)

تحت أقدام هـذه الآلهة صورة الجنون المقيد وكثيراً من الأتباع الموثقة بزحل وبراكب المركبة اثنا عشر راعياً ارتدوا جلود القاقم والنمس ، واحتـذوا خفافاً قديمة الزي وحملوا مزاود وتوجوا بأكليل من الأوراق . ووضع على ظهور الخيول التي امتطاها هؤلاء الرعاة بدلاً من السروج ، جلود سباع وعور وذئاب ذهبت براثنها . وأحاط بردافها أثفار مصنوعة من حبال مذهبة ، وكانت الركب شبيهة برؤوس الكباش أو الكلاب أو حيوانات أخرى ، وكانت اللجم ضفائر من فضة وأوراق أشجار . ويسير في إثر كل راعي أربعة من القتامة يرتدون أكسية دون كمائه جمالاً ، ويحملون بأيديهم مشاعل تماثل أغصان الصنوبر .

«ويجر المركبة الثانية أربعة ثيران تغشيها أقمشة زاهية بأهلة الشمس . » ومن قرونها المذهبة تتدلى أكاليل من الأزهار وصبحات ، وركب في المركبة « نوما بومبيليوس » Numa Pompilius ثاني ملوك الرومان (يقول الكتاب اللاتيني إنه حكم من عام ٧١٤ الى ٦٧١ ق . م) ، محاطاً بكتب الديانة وبكل الحلل الكهنوتية والأدوات الضرورية للضحايا . يليه ستة من الكهنة وقد امتطوا بغلات جميلات جداً وتستر رؤوسهم أغطية مزدانة بأوراق اللبلاب موشاة بالذهب والفضة . ويرتدون أقمشة قديمة الزي يزين الذهب أهدابها . يحمل بعضهم حُقّاً ملئت طيباً ، والآخرون إناء ذهبياً أو شيئاً آخر من نفس النوع ، ويسايرهم ووراء ثاويون يحملون شمعدانات قديمة .

«وعلى العجلة الثالثة التي تجرها خيول بارعة الجمال ، والتي تفنن بونتورمو بزخرفتها بالرسوم المختلفة قد جلس « مانليوس توركواتوس » Manlius Torquatus الذي أصبح قنصلاً بعد الحرب القرطاجية الأولى ، ويعود الفضل في ازدهار مدينة روما الى سياسته الرشيدة . وكان يتقدم هذه العربة إثنا عشر شيخاً وكبراً خيولاً مغطاه بلبد مموه بالذهب ، يحيط بهم لفيف من القضاة يحملون حزماً وفؤوساً والرموز الأخرى الخاصة بالعدل » .

« وتجر المركبة الرابعة التي استوى فيها يوليوس قيصر ، أربع جواميس زينت بزي الفيلة . وقد صور « بونتورمو » على المركبة أروع مآثر الفاتح . وكان يتبعها إثنا عشر فارساً يحملون أسلحة لمّاعة جعلها الذهب . وكل منهم يقبض على رمح يرتكز على الفخذ . وكان الأتباع يحملون مشاعل ترمز الى انتصارات » .

« وعلى العربة الخامسة التي تجرها خيول مجنحة على شكل عقبان ، قد استوى قيصر أغسطس . ويصحب الامبراطور إثني عشر شاعراً امتطوا الخيول وتوجوا بالغار وساهمت آثارهم في تخليد ذكراه . ويحمل كل شاعر وشاحاً نقش عليه اسمه .

« وجلس الامبراطور ترايانوس (٩٨—١١٧) في العربة السادسة وقد كلف « بونتورمو » بزخرفتها وكانت تجرها ثماني عجال (أنثى العجل) أنفق كثيراً على تربيتها . ويتقدم الامبراطور إثنا عشر مشرعاً على ظهور الخيل وقد ارتدوا حللاً طويلة . ثم يليهم نساخ وسجلون يحملون في يد مشعلاً وفي الأخرى كتباً . وتسير في إثر هذه العربات العربة المركبة التي ترمز الى العصر الذهبي وقد صوّرها « بونتورمو » وزخرفها « باندينلي » بصور عديدة بارزة . وفي وسطها وضعت كرة ذهبية ضخمة عددت فوقها جثة مغطاة بسلاح حديدي علاه الصدأ . ومن كشحها برز طفل عار ومذهب ليمثل بعث العصر الذهبي وخاتمة العصر الحديدي . ويعود الفضل في هذا الحدث الخطير الى ارتقاء لاون العاشر سدة البابوية . ويشير غصن الغار اليابس الذي بدأت أوراقه تخضوضر الى ذات الفكرة مع أن أشخاصاً كثيرين تكهنوا عنه أنه يلمح الى لوران دمديتشي . أما الصبي الذي موّه جسمه بالذهب وتحمل كثيراً من المشاق لقاء مبلغ زهيد من المال لم يلبث أن فارق الحياة » .

مهما كان التعداد جافاً فهو يظهر لنا الذوق الفني الذي كان يتحلى به أبناء ذلك العصر . ولم يكن ذلك الذوق وقفاً على الأشراف والأغنياء فقط ، بل كان من خصائص جميع الطبقات . وكان لوران يقصد من إقامة هذه المهرجانات الاحتفاظ بنفوذه . وإلى جانب هذه الحفلات كانت توجد المساخر وما يصحبها من الأناشيد التي أضاف إليها لوران زيادات كثيرة وتفنن فيها أيما تفنن . ولم يكن يحجم عن المساهمة في هذه الأفراح ، وكثيراً ما كان يلقد الأبيات التي نظمها ويظهر في طليعة المحتفلين بالمهرجان الفخم . ولا يجب أن ننسى أن « لوران دو مديتشي » كان في ذلك العصر أعظم صيرفي وأكرم من تعهد حماية الفنون الجميلة ، والصانع الأول في المدينة ، وفي ذات الوقت كان جميع القضاة يقرون له بالزعامة . فكان يجمع في شخصه المزايا التي نجدها اليوم موزعة بين « الدوق دلوين » (١٨٠٢ — ١٨٦٧) le duc de Luynes وروتشيلد ، ومحافظ منطقة السين ، ومديري أكاديمية الفنون الجميلة ، وأكاديمية المخترعات ، وأكاديمية العلوم الخلقية والسياسية ، والمجمع العلمي الفرنسي . ذلك هو الرجل الذي كان يتزعم حفلات المساخر في الشوارع ، ولم يكن يشعر مطلقاً أن اتيان هذه الأعمال يمس كرامته . وقد أكسبته هذه الحياة شرفاً ، عوضاً من أن تجعله مسخرة ، ذلك لأن الذوق في ذلك العصر كان مرهفاً ، حاداً . وقبيل المغرب كان يخرج من قصره ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل يحملون المشاعل ويطوفون في شوارع فرنسا حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل ، ترافقهم أجواق موسيقية مكوّنة من عشرة أو اثني عشر أو خمسة عشر مغنياً . وقد طبعت المقطوعات التي تنشد في هذه المساخر في مجلدين ضخمين .

وسوف لا أسرد إلاّ أغنية واحدة نظمها « لوران » ذاته ، وعنوانها « باخوس وآريان » هي وثنية في جالها ومغزاها . ذلك لأن ذلك العصر شهد انبعاث الوثنية القديمة بفنونها وتفكيرها .

« ما أجمل الشباب ! إلاّ أنه زائل » .

« من يشأ أن يكون سعيداً ، فليتمتع فوراً ولا يثق بالغد » .

« هو ذا باخوس وآريان — ما أجملهما ، انهما يتأججان شوقاً الى بعضهما . هما »
« سعيدان دائماً ويعيشان سوية ، لأن الزمن زائل وخداع » .

« هؤلاء الصبايا والآخريات يسرحن الانتظار . من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع »
« ولا يثق بالغد » .

« هؤلاء الفتيان الظلماء الجذلان — عشاق الصبايا قد نصبوا لهن مائة شرك — في »
« المغاور والغابات — وفي فترة الانتظار طفقوا يرقصون ويقفزون لأن باخوس دفأهم — »
« من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع ولا يثق بالغد » .

« يا أيتها العاشقات والعشاق — ليحيى باخوس وليحيى الحب — ليتناول كل منكم »
« آلات الطرب ويرقص ويغنّي — وليتأجج القلب بحلاوة الغرام — وابعادن الشقاء والألم »
« من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع ولا يثق بالغد » .

« ما أجمل الشباب ! إلاّ أنه زائل » .

وكان هناك أناشيد كثيرة غير هذا النشيد : يغني بعضها غزالات الخيوط الذهبية ، وأخرى ينشدها جماعة من الفقراء ، وغيرها خاص بالنساك والنساء والأساكفة والمكارين والباعة وصانعي الحلوى والزيت . وكان مختلف الهيئات النقابية تفد لتساهم في المهرجانات وبإمكاننا أن نبعث نفس المشهد فيما لو فرضنا ان كل ما عندنا من مسارح قد اشتركت في مظاهرة تتألف في الشوارع عدة أيام متتالية . ومع ذلك فانه يظل هناك فارق . وهؤلاء الذين كانوا يقومون بمهرجانات فلورنسا لم يكونوا أشخاصاً دفعت لهم الأجور كي يلبسوا ثوباً مستعاراً ، بل كان الموكب يتألف من السكان أنفسهم . فكانت المدينة بأسرها تهجد الشارع وهي سعيدة أن تتأمل ذاتها وتعجب بأفراحها . فمثلها مثل الفتاة الجميلة التي تبرز للناس بعد أن بذلت قصارى جهدها كي تستكمل أسباب الزينة .

وليس أقوى على انماء الخصائص الانسانية من اتحاد كهذا الاتحاد في الأفكار والعواطف والأذواق . وقد لوحظ ان ثمة شرطين ضروريين لنتاج الآثار العظيمة : الأول فوران عاطفة غريزية خاصة وشخصية ، يعبر عنها بصدق دون أن يحسب حساباً لرقيب ،

ودون أن توجه أي توجيه . أما الشرط الثاني فهو توفر النفوس المتعاطفة ، وهي بمثابة المدد الخارجي غير المنقطع الذي ينضج من الأفكار الجنينة التي تحتضن الأفكار الغامضة المبهمة وتغذيها وتنميها وتتوجها وتشجعها . وتصدق هذه الحقيقة في كل مكان على الثورات الدينية والمشاريع العسكرية في الآثار الأدبية والمسرات الدنيوية . ان النفس تشبه الجسم المتقد . فلكي يؤثر هذا الجسم يجب أن يشتعل أولاً ومن ثم أن يجد حوله جذوات أخرى مشتعلة . لأن التماس الدائم يضرم هذه الجذوات وتتضاعف حرارتها مئات المرات فتمتد ألسنة اللهيب من كل صوب . تأملوا هذه الشيع القليلة الشديدة البأس من البروتستانت الذين هجروا انجلترا وعبروا خطار المغرب لينشئوا الولايات المتحدة الأميركية . كانت تلك الشيع مؤلفة من رجال تجاسروا على الاعتقاد والاحساس والتفكير العميق على نمط مبتكر يتصف بالعمق . ولكل منهم عقيدته الراسخة الخاصة . ولما قدر لهم أن يجتمعوا وقلوبهم مفعمة بعواطف متماثلة يحدوهم نفس الحماس أصبحوا جديرين على أن ينتصروا مساحات مقفرة ويؤسسوا ولايات متمدنة .

ويصدق القول كذلك على الجند في أواخر القرن الماضي كانت الجيوش الفرنسية بعيدة عن النظام حديثة العهد بالفن الحربي يقودها ضباط لا يقلون جهلاً عن الجند الذين يأتمرون بأمرهم واضطرت ان تجابه جيوشاً أوربية أخرى تدربت على النظام ، وان ما دعم هذه الجيوش ودفعها الى الأمام وجعلها تحرز النصر هي العزة قبل كل شيء وقوة العقيدة الباطنية التي جعلت كل جندي يعتبر نفسه متفوقاً على اولئك الذين يذهب لمحاربتهم ، ومكلفاً أن يحمل الحقيقة والعقل والعدل الى قلوب جميع الشعوب مهما كثرت المصاعب . ولا ننسى الاخاء الشريف والثقة المتبادلة واتحاد الميول والأهداف المتوفرة في الجيش ، الجندي البسيط والرئيس والقائد والتي جعلتهم يشعرون انهم مكلفون بأداء نفس الرسالة ، فتقدم كل منهم متطوعاً ، فاهماً الحالة ، مقدراً الخطر والضرورات ، على استعداد ان يصلح الهفوات ، فلم يتألف من مجموعهم إلاّ إرادة واحدة ونفساً واحدة ، ففاقوا بالحمية الناشئة والوئام اللاإرادي الآلات المتقنة التي تضافرت على صنعها ، عبر القرون ، التقاليد والعرض العسكري والنظام البروسي المتسلسل .

وتصدق هذه الأقوال على الفن والفرح ، كما أنها تصدق على المصالح والأشغال . فرجال الفكر لا يشحذ فكرهم إلاّ عندما يتم احتكاكهم ببعضهم ولكي نحصل على آثار قيمة ينبغي أن تنجب الأمة فنانين وتنشىء أماكن يعملون فيها . فأماكن العمل كانت متوفرة ، وأما الفنانون نقابات تؤلف منهم جماعات صغيرة في وسط المجتمع الكبير ، وتوثق بينهم

عرى الاتحاد . وقد عملت المؤالفة على تقريب القلوب والمنافسة على شحذ القرائح . ولم يكن مكان العمل قاعة منسقة للتسامي توحي التكلف ، بل كان دكاناً بسيطاً . وكان التلاميذ صناعاً يقاسمون أساتذتهم أعمالهم ويعايشونهم ، وليسوا غواة يشعرون بزوال الكابوس عنهم حالما يؤدون ما يترتب عليهم من المال . وكان الطفل يتعلم في المدرسة القراءة والكتابة وقليلاً من الاملاء . وفي السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يختلف الى المصور أو الصائغ أو المهندس أو النحات وكثيراً ما كان الاستاذ يحذق جميع هذه الفنون ، فيدرس التلميذ الفن بكامله لا جزءاً من الفن . وكان يشاطره عمله ، فيصنع الأشياء السهلة وصفة اللوحات والزخارف البسيطة والأشخاص اللاحقين ، ويساهم في الأثر الفني ويهتم به كما لو كان من صنع يديه . وكان يعتبر بمنزلة الولد ، ويقوم بمهمة الخادم في البيت ويتحمل بخليفة المعلم ورؤاته ؛ ويقضي حاجاته وينام قربه على مقيفة ، ويتلقى سبابه ولكزاته وصفعات زوجته . وبهذا الصدد يروي « رافائيلو دي مونتليبو » Rafaello di Montelupo الحادثة التالية :

« قضيت عند « ميكيل بانديني » من الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة ، أعني سنتين ، وكان معظم وقتي ينقضي في تحريك المنفاخ كي يتمكن المعلم من إنجاز أعماله ، وأحياناً كنت أنصرف للرسم . وقد حدث في أحد الأيام أن كلفني المعلم أن أحمي ثانية بعض القطع الذهبية التي كانت تصنع للدوق « لورنزو دمديتشي » . فكان يطرق القطع على السندان ، وعندما يكون منصرفاً لطرق إحداها ، أكون معنياً بإحماء الأخرى . وقد توقف مرة عن العمل ، وبدأ يتحدث مع أحد أصدقائه دون أن يلاحظ انني انتزعت الباردة من أمامه ووضعت القطعة الحامية ، ثم انصرف عن الكلام وتناول القطعة فأحس بلذع لفح أصبعيه اللتين تناولتاها بها . عندئذٍ بدأ يصرخ ويقفز في الدكان ، وهاء أن يصفعني فأخذت أذانيه وعجز أخيراً أن يقبض علي . ولما حانت ساعة تناول الطعام ، مررت قريباً من كوة المحل الذي يوجد فيه ، فأمسكني بشعري وصفق وجهي عدة مرات » .

هذه عادات مألوفة بين الشعراء ، سواء كانوا عماليين أم بنائين ، وهي جافة وصريحة وصحيحة وودية . وكان التلاميذ يصحبون المعلم في أسفاره ، ويقاتلون الى جنبه باليد والسيف اذا ما اعترضه أحد في الطريق ويدافعون عنه ضد كل هجوم وفي المناسبات السيئة ، وقد رأينا كيف أن تلاميذ « رفائيل » و « مليي » يتقنون الخنجر أو يستلون السيف حفاظاً لشرف البيت .

وكانت هذه المؤالفة والصحبة الخالصة تسودان علاقات المعلمين ببعضهم . وأطلق على احدى جمعياتهم التي أنشئت في فلورنسا اسم جمعية المرجل ، ولم تكن تضم سوى اثني عشر

عضواً . ويحق لكل واحد أن يأتي الى مكان الاجتماع بثلاثة أو أربعة أشخاص فيجلب كل واحد منهم وعاء من صنعه ، وأيهم يشاهد برفقة غيره يكلف دفع الغرامة . ما أعظم الحياة المادية في هذه الأذهان التي تنعش بعضها بعضاً ، ولنلاحظ كيف أن تعرق الرمز كانت تجد مجالاً للظهور حتى في مناسبات الطعام . ففي مساء أحد الأيام اختار أحدهم خابية منقلبة بدلاً من طاولة . وأدخل اليها المدعوين ؛ عندئذٍ برز من مركز الخابية شجرة ذات أغصان تحمل صحوناً وفق عددهم ، بينما كانت جوقة من المغنين ترسل أنغامها من تحت . ويتكوّن الطعام الذي قدم للضيوف من فطيرة عظيمة يظهر فيها « أوليس Ulysse يغلي أباه ليشبه » والصورتان هما ديوك مسمنة مسلوقة نقشت نقشاً خاصاً فأنتجت أشكالاً بشرية وزينت بأشياء كثيرة لذيذة المأكل . أما « اندريادل سارتو » فقد جاء بمعبد ذي ثماني واجهات مركز فوق أعمدة ، وأرضه مكونة من جفنة هلامية كبيرة مقسمة أقساماً كثيرة تشابه الفسيفساء ، أما الأعمدة التي تتراءى للناظر أنها صنعت من رخام سماقي فقد كوّنت من نقانق ضخمة ، وعملت القواعد ورؤوس العواميد من جبن مصفر يصنع في بارمو ؛ والأطناف من دمعجنات حلاوة ، والمنبر من فطيرة محشوّة لوزاً وسكراً . ويظهر في الوسط مقرأ كوّن من لحم بارد ، وعليه الكتاب الخاص بالقداس وقد صنع من العجينة ؛ أما الأحرف ورموز الموسيقى فقد تكوّنت من حبوب الفلفل ، وتحيط به دجاجات برية مفتوح منقارها ، ترمز الى جوقة المرتلين ، ووراء الدجاجات حمامتان كبيرتان وستة حساسين تمثل مرتلين تنوّعت أصواتهم . وقدّم آخر خنوصاً يمثل قروية تغزل وتحرس أنقافها ، وصنع غيره قنالاً من أرزة كبيرة . ولكم أن تتخيلوا القهقهة الصادرة من يتنوع الطبع المرح الغريب .

—— والى جانب هذه الجمعية نشأت جمعية « المسجة » ملعقة البناء — وكان من تقاليدها أن تتبع الأعشية بفصول تثير الضحك . فيخطر للندماء إن يمثلوا تارةً بروزربين Proserpine ملكة جهنم وكيف توصل « بلوتون » Pluton إلى اختطافها ، وطوراً حب الزهرة والمريخ ، وأحياناً فصولاً لماكيافيلي أو أريوست . . ولما كانت المسجة رمزاً للجمعية ، فقد أمر الرئيس يوماً سائر الأعضاء أن يحضروا وقد ارتدوا ثياب البنائين ويجيئوا بكل الأدوات التي يعوّل عليها البنّاء في عمله ، وطلب إليهم أن يبنوا بناء ، ليس من حجر وطين ، بل من لحم وخبز وأقراص وسكر . ان الخيال اذا ما خصب يفيض ويتجلى في هذه القصور الفاتنة . ويظل الانسان طفلاً بخياله ما دامت روحه نقية ، ويحشر في كل مكان الأشكال الجسدية التي يؤثرها ، وينهض بدور الممثل والمقلد ، ولا ينفك يلهو بفتنةٍ ما دام مندمجاً منه .

وفيما عدا هذه الجمعيات التي تحددت أهدافها ، كانت توجد جمعيات كبيرة تضم جميع الفنانين قصد أن توحد جهودهم . وقد رأينا كيف أن أعشيتهم تحطلها البشاشة ، وإظهار السريرة ، والألفة ، والبساطة ، والطبع الحسن المضحك ، ويتبادر الى الذهن ان هذه الخصال من خصائص الطبقة العاملة ، ويتحلون بالنزعة الوطنية المدينية (نسبة الى المدينة) التي تؤثر في العمل . فيتحدثون بكبرياء عن « مدرستهم الشهيرة في فلورنسا » . ويظنون أن ما من مدرسة غيرها تجعل الطالب يتقن فن الرسم . يقول « فازاري » هناك يولد الناس مكتملين في كافة الفنون وخاصة التصوير . إذ أن المرء تستحثه ثلاثة عوامل في هذه المدينة: أما الأول فهو النقد الشديد المدار لأن جو البلاد أنشأ عقولاً تتميز بحريتها ولا تكتفي بالنتاج المتوسط ، ولا يأبهون إلاّ للحق والجمال دون أن يميروا صاحب الأثر اهتماماً والدافع الثاني هو الحاجة الماسة للعمل بنية « كسب القوة » وهذا يعني أن على الفنان أن يصنع دائماً أثراً عليه طابع الابتكار ، وأن يكون ذكيّاً ونشيطاً في أشغاله . وبالاختصار عليه أن يعرف جيداً كيف يكسب قوته لأن البلاد ليست غنية ولا خصبة كغيرها ، فلا تستطيع أن تكفي سكانها بعالم زهيدة . والعامل الثالث ، الذي لا يقل أهمية عن الاثنين السابقين الذكر ، هو شيء من التعطش للمجد والشرف ، ويبدو أن جوّ البلاد يولد هذا التعطش عظيماً فنجده أثراً في قلب كل عامل ، ويجعلهم يتمردون على فكرة المساواة بأولئك الذين يعتبرونهم متفوقين وليسوا إلاّ أناساً مثلهم . ولو لم يكونوا صلحاء وحكماء من طبيعتهم ، لأدّى هذا التنافس الحاد والطموح المظلم الى الاغتياب والجدب . ويتفقون على إتقان العمل عندما يعلمون أن ذلك يكسب مدينتهم شرفاً . وأن المنافسة التي تدفع كلاً منهم ليبز خصمه ، محمودة العاقبة . فلما جاء البابا لاون العاشر عام ١٥١٥ كي يزور مسقط رأسه فلورنسا دعت المدينة كل الفنانين كي يستقبلوه بأبهة فبنى في المدينة اثنا عشر قوساً من أقواس النصر إزدانت بالتماثيل والصور . وخلال الأقواس شيدت أبنية فخمة ونصبت مسلاّت وعواميد وصفت مجموعات فنية مماثلة لتلك التي توجد في روما . « وشاد » « الطوتيوساق جالو » على أرض ساحة السيد معبداً ذا ثماني واجهات ، وصنع « باندينلي » عملاقاً ، وبين « باديا » وقصر قاضي القضاة أقيم قوس نصر ، وأقام « روسو » قوساً آخر زينته صور عديدة بارعة التنسيق . لكن الشيء الذي أحرز الاعجاب هو واجهة « سانتا ماريا » المصنوعة من الخشب ، وزينها « أندريا ولاسارتو » بالصور التاريخية الجميلة . وزخرف حواشيها المهندس « سانسو فينو » بحوادث تاريخية كثيرة حسب التصميم الذي وضعه « لوران دمديتشي » والد البابا . وصنع سانسو فينو نفسه حصاناً على غرار الحصان الموجود

في روما وأقامه في ساحة « سانتاماريا الجديدة » وقد بدا جميلاً للغاية . وزينت « البناية التي حل فيها البابا بزخارف لا يوصف تنوعها ، وقد ازدان ذلك الشارع بصور « تاريخية جميلة جداً اشترك فيها فنانون كثيرون ، لكن «يا نديتلي » استقل برسم معظمها » .

نرى مما تقدم أن هذه المجموعة من القرائح قد تكاملت وبلغت مستوى رفيعاً بفضل المشاركة . فالمدينة تعمل لتتجمل . فنراها اليوم بكاملها منهمكة لكي تحتفل بالكاروناڤال أو لترحب بأمير ، وغداً ، وطيلة أيام السنة ، ترى الأحياء والنقابات والجمعيات والأديرة ، يحدوها الحماس «غنية بالقلب فقيرة بالمال » ، تبذل جهدها لتزخرف كنيستها وديرها ورواقها ومكان اجتماعها وثيابها وأعلامها وعرباتها . يستحيل أن يبلغ الحماس هذا المدى من القوة والشمول ، ويستحيل أن يوجد جو يصلح لنشوء فنون الرسم كهذا الجو ، ويستحيل أن يتوفر لها زمان ومكان كهذا الزمان والمكان ، إذ أن تضافر الظروف أمر فذ : ذلك لأن عرقاً مهوراً بالخيال المنسق والمصوّر يبلغ الثقافة العصرية وهو لا يزال محافظاً على عادات عصر الأقطاع ، فيوفق بين الغرائز القوية والأفكار الدقيقة ، ويعبر عن أفكاره بأشكال حسية . ويثب وثباً غريزياً عاطفياً حتى يبلغ المدى الأخير من عبقريته . وهذا الانطلاق الناشيء عن احتكاك الفئات الصغيرة الحرة التي يتكون منها الشعب ، يبتكر النموذج الأسمى ، ولا يستطيع غير الكمال الجسماني أن يعبر عن الوثنية الرفيعة التي بعثت فترة من الزمن .

كل فن يمثل الجسم الانساني يخضع لهذه المجموعة من العوامل التي تمد الشرط الأساسي لنشوء أسمى آيات التصوير . فان انعدم وجود هذه العوامل أو فسدت ، انعدم التصوير أو فسد . ويستحيل الظهور على هذا الفن ما لم تتوفر له تلك الشروط . فقد هزل حالما بدأت تضعف وتهجر . فالتصوير ساير هذه العوامل منذ نشأتها وفي ابان نمائها واضمحلالها وتلاشيها وظل رمزياً وصوفياً حتى خاتمة القرن الرابع عشر ، ما دام خاضعاً لسيطرة الأفكار اللاهوتية والمسيحية . ويمد عمر المدرسة الرمزية والصوفية حتى أواسط القرن الخامس عشر خلال الفترة التي نشب فيها الصراع بين التمدن المسيحي والتمدن الوثني . لكنه عثر في أواسط القرن الخامس عشر على رجحانه السامي في نفس تقية حالت عزلة الدير بينها وبين أدران الوثنية الجديدة : ووجه التصوير اهتمامه الى الجسم الحقيقي القوي منذ السنوات الأولى في القرن الخامس عشر حاذياً في ذلك حذو النحت ، مستفيداً من دراسة التشريح ، واستكمال المثال مطابقة الشبه واستعمال الزيت ، أضف الى ذلك انقطاع الحروب في تلك الفترة من الزمن ، والسلام الخيم على المدن ، ونمو الصناعات ونمو الثروة ، وازدياد الرفاهية

وبعث الآداب والأفكار القديمة ، ألوت بالأنظار المتجهة صوب المستقبل الى الحياة الراهنة أو انتلمت جذور الإيمان بالنعيم السماوي وطفق الانسان يبحث عن السعادة الأرضية . ثم ما لبث الفن أن اجتاز مرحلة التقليد الصحيح وبلغ الابتكار الجليل على عهد « ليوناردو دافنشي » و « مكيلانجيو » و « لوران دمديتشي » لما استكملت الثقافة وأخذت ترسع أفق الذهن وتنضج الأفكار ، فأنتجت الأدب القومي الى جانب البعث التقليدي وخلقت الوثنية للكتلة الحلبية التي لم يعرف منها إلاّ النذر اليسير . وقد استمر في البندقية مدة نصف قرن بعد أن خبا ضياؤه في غيرها ، فكأنه في واحة تقيها شر البرابرة ، وفي مدينة مستقلة احتفظت بالتسمح على برأي من البابا ، واتسمت بالوطنية في وجه أسبانيا ، وتمسكت بالعادات العسكرية تجاه الترك . ثم ما لبث أن تراخى في عهد « كوريج » Corrège ، ومني بالبرودة على يد خلفاء ميكلانجيو ، وذلك بسبب الغارات والجماعات المتراكمة التي خضدت شوكة الارادة الشخصية ، ولما طفقت السلطة العلمانية ومجالس التفتيش الديني ، وغرور رجال الجامع العلمية تعمل على ضبط وإضعاف مادية الابتكار الطبيعي ، ولما أخذت العادات تبحث عن مظاهر الحشمة ، والأذهان اتجهت صوب النزعة العاطفية ، ولما أصبح المصور فرساً مهذباً بعد أن كان صانعاً سافجاً ، ولما حلت الأكاديمية محل الدكاكين والصناع ، ولما أصبح الفنان سياسيًّا داهية ، فخوراً بمركزه ، متقيداً بالعرف ، مدافعاً عن التقاليد ، يكيل المديح للأحبار والعظام بعد أن كان حرًّا جريئاً ، يلهو وينحت ويحابه في أعطية « السعة » .

من هذه المطابقة الصادقة والمستمرة يلاحظ أن الفن العظيم والبيئة صنوان ، ولا يظن أنهما اجتمعا عرضاً بل أن البيئة هي التي توجد وتنمي وتنضج وتفسد وتلاشي معها الفن خلال الحوادث التي تنتج من رجّات اجتماعية قوية وعن خوارق شخصية لم تكن في الحسبان أن البيئة تأتي بالفن أو تذهب به ، فهي كالبرودة التي تأتي بالندى أو تمنع سقوطه حسب شدتها أو اعتدالها ، وكالنور الذي يغذي أو يهزل أجزاء النبات الخضر تبعاً لسطوعه أو خبوه .

نختتم هذا البحث ويقيننا أننا اذ شئنا أن نعيد من جديد على مسرح الوجود فناً عاملاً ، ينبغي أن يعمل تيار القرون على خلق بيئة مماثلة لذلك .